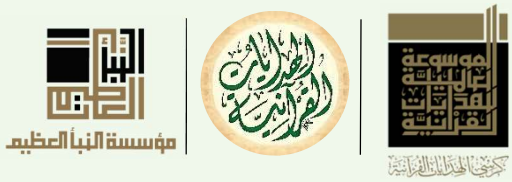

الجامع في الهدايات القرآنية

سُورَة الأنفال

جمع واستنباط

نخبة من الأساتذة وطلاب العلم في التفسير والقراءات والحديث والعقيدة والفقه وأصوله واللغة العربية والتربية والعلوم الطبية وغيرها، من مختلف دول العالم عبر مجموعة واتساب متخصصة في الهدايات القرآنية

إشراف

أ.د. طه عابدين طه

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

رعاية

كرسي الهدايات القرآنية بجامعة أم القرى

ومؤسسة النبأ العظيم الوقفية بمكة المكرمة

قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ١].

١. سورة الأنفال سورة التربية الجهادية ففيها أسباب النصر والهزيمة.

٢. تفيد أنَّ السؤال من طرق اكتساب العلم.

٣. تفيد حرص الصحابة على السؤال مما يدلُّ على حرصهم على التعلم والعمل.

٤. تفيد: حِلُّ الغنائم لرسول الله؛ إذ لو لم تكن كذلك، لما قال: "والرسول"، وتصديقه ما صحَّ عن رسول الله من إخباره عن الأمم السابقة، أنَّ النَّار كانت تأكل الغنائم؛ فلم تدعها لنبي ولا لقومه – ذاك الزمان.

٥. فيها أنَّ الله تعالى ربَّى أصحاب نبيِّه على عدم التعلق بالدنيا وترك التنازع فيها وصفَّى نفوسهم بأجلِّ العبادات فكانوا نموذجا يحتذى.

٦. تفيد أهمية التعلم الموقفي، وذلك بتبيين الأحكام المرتبطة بالموقف، وتوظيف المواقف للتعليم.

٧. فيها خطة اقتصادية لتوزيع الثروات والمكاسب الناتجة من الجهاد.

٨. تفيد وجوب الاستسلام لحكم الله ورسوله ﷺ؛ لا سيما في قسمة هذه الغنائم. وفي هذا إشارة إلى: أنَّ الصحابة لم يكونوا طلاب دنيا كما زعم الروافض قاتلهم الله. ووجهه: أنَّ الصحابة رضي الله عنهم جاهدوا مع رسول الله ﷺ وشهدوا معه المشاهد كلها ونالهم في الجهاد ما نالهم، مع علمهم ويقينهم أنَّ قسمتها لرسول الله ﷺ يتصرَّف فيها كيف يشاء.

٩. تفيد حسن تدبير الرسول ﷺ لشؤون الأمَّة وعلى رأسها الأموال.

١٠. تفيد عناية الله تعالى بأصحاب النبي ﷺ حيث تولى الإجابة على أسئلتهم ويوجههم إلى ما فيه صلاحهم.

١١. تفيد مكانة النبي ﷺ عند ربِّه فقد قرن طاعته بطاعته.

١٢.تفيد الآية استعداد العلماء التبليغ القائم على أدلَّة القرآن والسنة للإجابة عن الأسئلة الناتجة عن النوازل والمواقف المستحدثة.

١٣.إصلاح ذات البين والترفُّع عن الخلافات هي من لوازم تقوى الله.

١٤.الوحدة قوة ومنعة ورحمة والفرقة ضعف وخور وعذاب.

١٥.تفيد الحاجة للتربية النفسية لإصلاح ذات البين.

١٦.تفيد أنَّ فساد ذات البين يخالف صفات المؤمنين.

١٧.فيها التأكيد على التعبُّد لله بإصلاح ذات البين؛ فليس فقط إصلاحها لمصلحة اجتماعية دنيوية، ولكن هي قربى يتعبد الله بها؛ لقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، بعد أن قال: ﴿وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ﴾؛ وكأنَّه يقول: أصلحوها، ليس فقط من أجل عدم التنازع على الغنائم وأمور الدنيا، ولكن طاعة لله ورسوله.

١٨.تفيد أنَّ الأموال طريق يدخل منه الخلاف مما يستوجب الصلح.

١٩.فيها أنَّ المؤمن ينبغي أن يرجع إلى حكم الله ورسوله حال الخلاف والاختلاف.

٢٠.تفيد أنَّ نصرة الأمَّة تحتاج إلى من يتحلُّون بالإيمان الذي نتاجه التقوى، وإلى عقل كبير الذي نتاجه إصلاح ذات البين، وإلى علم الذي نتاجه طاعة الله ورسوله.

٢١.تفيد منزلة وأهميَّة إصلاح ذات البين وهو مع التقوى والطاعة أهم عوامل النصر على العدو.

٢٢.فيها أنَّ طاعة الله ورسوله، علامة على الإيمان – وكل بحسبه.

٢٣.تفيد أهميَّة استعمال الأسلوب الذي يهيّج ويرغّب في الاستجابة لله والرسول ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

٢٤.تفيد دقة التناسب وروعة التناسق بين خاتمة سورة الأعراف وفاتحة هذه السورة فبعد أن ختمت سورة الأعراف بالأمر بذكر الله تعالى والاستماع إلى القرآن الكريم والإنصات إلى قارئه؛ ذكر في فاتحة هذه السورة ما يحدثه ذكر الله وتلاوة آيات القرآن الكريم عند المؤمنين من الآثار الحميدة.

٢٥.فيها أنَّ ذكر الله تعالى فضيلة عظيمة، إذا تمكنت في القلوب وجلت وخافت، وهي المقدمة لزيادة الإيمان الناشئة عن تلاوة الإيمان.

٢٦.ارتباط الذكر بعنوان الألوهية لما فيه من تربية المهابة والمحبَّة القلبية، وارتباط التوكُّل بعنوان الربوبية لما فيه من تربية السلوك والعمل، فالتوكُّل هو المعتقد الذي يتجلَّى في الأعمال، فتدرَّجت هذه الآيات في بيان الربط بين أعمال القلب والجوارح من خلال الذكر، والتلاوة، والتوكُّل، وجميعها مبني على المعتقد الحقَّ، والإيمان المتجدد.

٢٧.فيها أهمية أعمال القلوب، والعناية بها.

٢٨.تفيد أنَّ المؤمن حقًّا، من إذا ذُكِّر بالله من أي أحد – ولو كان أقلَّ منه شأناً – أن يخاف قلبه وينساق لطاعة الله؛ دلَّ عليه البناء للمجهول في قوله: ﴿ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ فعل ماض مبني للمجهول.

٢٩.مفهومها يفيد قوله: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾. وعليه: فالحذر الحذر، من أن يُذَكّر العبد بكلام ربِّه ثم يقسو قلبه ولا يلين للعمل به – لا سيما عند الخصومات والصلح بين ذات البين؛ قال الله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ [الزمر: ٢٣].

٣٠.فيها دليل لأهل السنة والجماعة على أصل من أصول الإيمان وهو أنَّ الإيمان يزيد وينقص؛ لقوله: ﴿زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾.

٣١.فيها أنَّ الإكثار من تلاوة القرآن الكريم مع تدبُّر القلب ووعيه مما يزيد في الإيمان. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والزيادة قد نطق بها القرآن في عدة آيات؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ وهذه زيادة إذا تليت عليهم الآيات أي وقت تليت ليس هو تصديقهم بها عند النزول وهذا أمر يجده المؤمن إذا تليت عليه الآيات زاد في قلبه بفهم القرآن ومعرفة معانيه من علم الإيمان ما لم يكن؛ حتى كأنه لم يسمع الآية إلا حينئذ ويحصل في قلبه من الرغبة في الخير والرهبة من الشر ما لم يكن فزاد علمه بالله ومحبته لطاعته وهذه زيادة الإيمان.(مجموع الفتاوى ٢٢٨/٧)

٣٢. تفيد أن المعرض عن القرآن لا يتحقق له ما وعد الله به المؤمنين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وصف المؤمنين حقًّا بأنَّهم إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وهؤلاء المعارضون لآياته إذا تليت عليهم آياته لم تزدهم إيماناً بل ريباً ونفاقاً.

٣٣.تفيد أنَّ النفع والضُّرَّ بيد الله؛ لذا ذكّر بالتوكُّل عليه، فلا تقضى مصلحة ولا تدرأ مفسدة، إلا بإذنه سبحانه.

٣٤.فيها: أنَّ المؤمن، يعتمد على الله وحده في جلب مصالحه ودفع مفاسده.

٣٥.تفيد: عظم شأن التوكُّل وأهميته. وقد صحَّ أنَّه سبب في دخول الجنة من غير حساب ولا عذاب؛ فعند البخاري (٦٥٤١) مرفوعا: "... فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ، قَالَ: هَؤُلاَءِ أُمَّتُكَ، وَهَؤُلاَءِ سَبْعُونَ أَلْفًا قُدَّامَهُمْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلاَ عَذَابَ، قُلْتُ: وَلِمَ؟ قَالَ: كَانُوا لاَ يَكْتَوُونَ، وَلاَ يَسْتَرْقُونَ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ".

٣٦.فيها أنَّ التوكُّل لا يكون إلا على الله تعالى وحده؛ أفادته صيغة الحصر في الآية الكريمة، وقد قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. ولذلك غالب آيات القرآن عندما تذكر التوكُّل تقدم الجار والمجرور من مثل: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ للتنبيه على الاختصاص وأنَّ مثل هذا لا يصحُّ لغيره سبحانه. وإن كان العوام يريدون به المعنى اللغوي لا الاصطلاحي بمعنى الاعتماد

والتقوى، لكن تصحيح المفاهيم واجب أهل العلم وطلابه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: هذا كله واجب؛ فإنَّ التوكُّل على الله واجب؛ من أعظم الواجبات، كما أنَّ الإخلاص لله واجب، وحبَّ الله ورسوله واجب وقد أمر الله بالتوكل في غير آية أعظم مما أمر بالوضوء والغسل من الجنابة، ونهى عن التوكل على غير الله، قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾.(مجموع الفتاوى ١٧/٧).

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٣].

٣٧.الآية السابقة. ذكرت دلائل الايمان القلبية وهذه الآية ذكرت الدلالة العملية.

٣٨.من صفات أهل الإيمان إقامة الصلاة وتعظيمها.

٣٩.فيها دليل على دخول الأعمال في مسمَّى الايمان.

٤٠.فيها أنَّ من صفات أهل الإيمان إقامة الصلاة والإتيان بها قائمة وقويمة.

٤١.من صفات المؤمنين الإنفاق في سبيل الله، سواء كانوا أغنياء أو فقراء، فكل ينفق من سعته، وقد مدح الله المنفقين في السراء والضراء. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[آل عمران: ١٣٤].

٤٢.تفيد: أنَّ الرزق بيد الله؛ لقوله: ﴿رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾.

٤٣.منها: أنَّ المال مال الله؛ فهو منه وإليه – إلا من أنفق رياء وسمعة.

٤٤.منها: أنَّ الله يضعه في يد من شاء؛ فلا حسد ولا اعتراض؛ ولكن الصبر والتسليم.

٤٥.تفيد قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ﴾ [المعارج: ٢٤]، أي؛ قدر مخصوص؛ دلَّ عليه التبعيض في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾، أي: من بعض ما رزقناهم وليس كله.

٤٦.فيها التلازم بين الصلاة والزكاة؛ فالصلاة عبادة البدن والزكاة عبادة المال.

٤٧.فيها المداومة على الأعمال الصالحة؛ لإيثار المضارع في الفعلين؛ ﴿يُقِيمُونَ ... يُنفِقُونَ﴾.

٤٨.تفيد يسر الشريعة الإسلامية وأنَّ الله لم يكلِّف عباده في الإنفاق والتصدُّق إلا بجزء يسير من أموالهم.

٤٩.تفيد إطلاق الآية أنَّ الإنفاق في غير الزكاة لا يقدر بشيء معين.

٥٠.تفيد أنَّ اليد العليا خير من اليد السفلى؛ وأنَّ الله ﷻ امتدح المنفقين ولم يمتدح الآخذين؛ وفي هذا إشارة إلى أنَّ المؤمنين كاملو الإيمان ينبغي عليهم أن يسعوا في كسب أرزاقهم والإنفاق على المحتاجين؛ وقد قال عليه الصلاة والسلام :(المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف).

٥١.تفيد أنَّ الصلاة كلَّها بإمكان العبد، يكون على الدوام القيام بها والإتيان بحقِّها ؛ أي لا يوجد مانع يعوق العبد من فعلها- غير الموانع الشرعية- فعلينا اغتنام ذلك بينما الانفاق مقيَّد بحسب رزق الله.

٥٢.تفيد أنَّ الكَيِّس الفطن ينفق ممَّا رزقه الله من ماله وعلمه وخلقه وما بوسعه.

٥٣.تفيد أنَّ من أعظم المظاهر الحضارية في المجتمعات المؤمنة هو وجود ظاهرة التكافل والتضامن والرعاية لكل المحتاجين إلى النفقة؛ سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين؛ وسواء كانوا أقرباء أو غرباء؛ ولا خير في إيمان أقوام يقيمون الصلاة ويمنعون أموالهم عن الفقراء والمحتاجين.

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤].

٥٤.تشير إلى: كمال الإيمان ونقصانه؛ لقوله ﴿حَقًّا﴾، ولم يكتف بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

٥٥.فيها إشارة إلى: وجود النفاق وأنَّ من الناس من يؤمن رياء وسمعه. ولذا قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، و ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر؛ لحصر الحكم على شيء معين.

٥٦.تفيد قصر الإيمان الحقّ على من تحققت فيه هذه الصفات. قال الطبري /: في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ برئوا من الكفر. ثم وصف الله النفاق وأهله فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ

بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾[سورة النساء: ١٥٠-١٥١] فجعل الله المؤمن مؤمنًا حقًّا، وجعل الكافر كافرًا حقًّا، وهو قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[سورة التغابن: ٢]. والنكتة في هذا، التعرض لأمر "النفاق" هنا؛ لأنَّه من الممكن الاكتفاء بأمر زيادة الإيمان ونقصانه في قوله: ﴿حَقًّا﴾.

٥٧.قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ فيه إشارة إلى رفعة منزلتهم وسمو مكانتهم.

٥٨.الجملة الاسمية ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ تفيد ثباتهم ورسوخهم في الإيمان لإتيانهم بأصوله وواجباته.

٥٩.في تقديم الدرجات ههنا تناسق وتناسب مع ما قبلها؛ وذلك أنَّه لما كانت لصفات المؤمنين الخمس المذكورة في الآيات السابقة والمشتملة على الأخلاق والأعمال درجات، كان جزاء المتَّصفين بها كذلك. وذكر الإمام أبو حيان وجها آخر من وجوه المناسبات في التقديم، فقال: «لما تقدمت ثلاث صفات قلبية وبدنية ومالية ترتّب عليها ثلاثة أشياء، فقوبلت الأعمال القلبية: بالدرجات، والبدنية: بالغفران، وقوبلت المالية: بالرزق الكريم، وهذا النوع من المقابلة من بديع علم البيان».

٦٠.تشير بتقديم المغفرة على الرزق إلى أنَّ المغفرة سبب من أسباب الرزق، وأنَّ المعاصي والذنوب سبب من أسباب الحرمان من الرزق (وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه).

٦١.تفيد: أنَّه متى ما تزايد الناس في وضع المراتب، وتحديد الدرجات، فإنَّما المحكّ الحقيقي هو درجة العبد عند الله.

٦٢.يكثر أهل الدعاوى ويتظاهر بعضهم ببلوغ أعلى درجات الإيمان، والحقائق إنَّما يعلمها الله، ونحن حين نتعامل مع المسلم بسلامة ظاهره، إلَّا أنَّنا نكل الحقائق إلى الله.

٦٣.قد يُنقص من قدرك بعض العباد، ويحقرك بما أنت لست أهله، فلا تأبه، فحسبك درجتك عند الله، فاجعله نصب عينك.

٦٤. أهمية التقديم؛ حيث يدلّ على أنَّهم منازل ورتب في الجنان وإن اشتركوا في أصل هذه الأعمال؛ فهل يستوي الصحابة ومن بعدهم وإن أتوا بما ورد في الآية – مثلا –؟؛ قال الله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[الحديد: ١٠].

٦٥. تفيد أنَّ الإيمان الحقَّ سبب في رفعة الدرجات في الجنَّات.

٦٦. وصف الدرجات بأنَّها عند ربِّهم يفيد عظم هذه الدرجات وعلُّو شأنها.

٦٧. فيها أنَّ الله قد يسوق عبده للخير سوقاً وهو كاره فالله يعلم وأنتم لا تعلمون.

٦٨. تنكير الدرجات وجمعها يدل على كثرتها وتفاوتها وعظمتها وفي الحديث: "إنَّ في الجنة مائة درجة أعدَّها الله للمجاهدين في سبيله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فأسالوه الفردوس فإنَّه أعلى الجنة وأوسط الجنة وسقفها عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة" رواه البخاري ومسلم.

٦٩. تفيد بمفهومها أنَّ من الرزق ما ليس بكريم؛ كأن يكون تحصيله بمشقة عظيمة – مثلا؛ بخلاف جنة الرحمن؛ قال الله: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾.

٧٠. فيها أنَّ الطاعات مآلها خير، وأي خير أعظم من المغفرة ورحمة الله ورضوانه مما أوجب رزقاً كريماً طيباً مبارك فيه..ومن أعظم الطاعات والقربات أعمال القلوب (الخوف من الله وتعظيمه وتوقيره، والوجل منه سبحانه والتوكُّل عليه.. أعمالاً تترسَّخ وتتجذَّر في قلوب المؤمنين الصَّادقين) وتبعها في الآيات الكريمات الجليلات أعمال الجوارح وما أعظم قدر الصلاة وما أعظم شأنها عند الله.

٧١. يفيد ذكر هذه الصفات في فاتحة هذه السورة براعة استهلال وحسن ابتداء وروعة مناسبة لجميع محاور هذه السورة التي تدور جميع آياتها في موضوع الجهاد في سبيل الله.

قال تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ [الأنفال: ٥].

٧٢.تفيد وبضميمة السابق: أنَّ إصلاح ذات البين، مهما كانت توابعها مُرَّة وشديدة على النفس إلا أنَّ عاقبتها محمودة طيبة كما لا يخفى. كما الخروج والجهاد في سبيل الله مع ما فيه من شدَّة على النفس إلا أنَّ عاقبته حسنة؛ بل أحسن العواقب (النصر أو الشهادة). قال الطبري في تفسيره: قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في الجالب لهذه " الكاف " التي في قوله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ﴾ وما الذي شُبِّه بإخراج الله نبيه ﷺ من بيته بالحقِّ. فقال بعضهم: شُبِّه به في الصلاح للمؤمنين اتقاؤهم ربهم، وإصلاحهم ذات بينهم، وطاعتهم الله ورسوله. وقالوا: معنى ذلك: يقول الله: وأصلحوا ذات بينكم، فإنَّ ذلك خير لكم، كما أخرج الله محمدًا ﷺ من بيته بالحقّ، فكان خيرًا له.

٧٣.فيها إشارة إلى أهمية البيت ودوره في حثِّ المسلم على الجهاد في سبيل الله، وألَّا يكونوا سبباً في صدِّه وعرقلته؛ لقوله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾، ولو شاء لقال: "كما أخرجك ربك لقتال عدوك بالحق"، أو "كما أخرجك ربك من مكانك – مثلا –؛ ولكنه قال: ﴿مِنۢ بَيۡتِكَ﴾.

٧٤.تفيد أنَّ النبي لا يغزو إلا بأمر الله وأنَّ الجهاد وحي من الله.

٧٥.تفيد أنَّ الجهاد في الإسلام بالحق وليس بالباطل؛ ألا تراه يقول: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ صدق الله

٧٦.تفيد بمفهومها: أنَّ الشيطان يخرج أولياءه بالباطل في قتال أو نحوه.

٧٧.فيها أنَّ على المسلم ألَّا يخرج من بيته لقتال أحد إلا بالحقِّ. ومن الحقِّ أن يبتغي وجه الله في ذلك.

٧٨.فيها أنَّ الاستجابة للحقِّ وتنفيذه لا يلزمها موافقة الهوى بل يجب الامتثال ولو خالف الهوى.

٧٩.تفيد: أنَّ المؤمن غير معصوم. وأنَّ الزلل منه وارد.

٨٠.٨٠.فيها التنبيه بين كراهة تنفيذ الأمر الشـــرعي وبين كراهة الحكم الشـــرعي. فالأول جائز والثاني محرَّم قد يؤدي إلى الكفر، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾. ففرَّق بين الامتثال والقبول.

٨١.تفيد أنَّ الصـحابة يتفاوتون في الفضـل والدرجة – وإن كان قد رضـي الله عنهم جميعا –؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ يريد: ليس كل المؤمنين.

٨٢.فيها مع ما قبلها التسليم والخضوع لأوامر الله -، والعاقبة الطيِّبة لذلك في الدنيا والآخرة.

٨٣.فيها إشارة إلى أخذ العبر والدروس مما جرى في هذه الغزوة (غزوة بدر).

٨٤.فيها أنَّ كراهة تنفيذ بعض الأوامر الشـرعية لا ينافي الإيمان؛ لأنَّه وصـفهم بالإيمان في قوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٨٥.تفيد أهمية معرفة الأحداث المهمة في الأمَّة والربط بينها لاسـتخلاص العبر والدروس؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ﴾؛ أي يشـــبه اختلافهم في الأنفال اختلافهم في خروجك لمحاربة قريش. وهنا لا بد للمتأمِّل والمتدبِّر اسـتخراج العبر والدروس والنتائج من هذا الربط بين هذين الأمرين العظيمين المتشابهين.

٨٦.تفيد مع ما قبلها أهمية اســتغلال المواقف والأحداث المهمة في الأمَّة من أجل التوجيه والنصح ونقد التصرفات ومعالجتها وإحداث التغييرات الضرورية.

٨٧.تشـــير إلى قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢١٦].

٨٨.تفيد مع ما بعدها أنَّ حريَّة التعبير وإبداء الرأي بما لا يتعارض مع ثوابت الدين وقيمه مما كفله الشرع الحنيف لكل شخص.

قال تعالى: ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٦].

٨٩.تفيد أنَّ الرأي يجب أن يصدر عن الحقّ وضوابطه وأول هذه الضوابط ألَّا يخالف نصوص الوحي، وإذا خالف ذلك فهو ممنوع مذموم.

٩٠.تفيد أن الإسلام لا يضطهد الناس، وإن قالوا كلاماً مخالفاً للشرع؛ بل يعالجهم بالحكمة ويرشدهم بالموعظة حتى يعودوا إلى رشدهم.

٩١.فيها أنَّ كراهة الموت لا تنافي الإيمان، وقد أقرَّ النبي ﷺ عائشة رضي الله عنها في قولها: إنَّا نكره الموت. في الحديث الصحيح المتفق عليه؛ فعن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال:" مَن أحَبَّ لِقاءَ اللَّهِ أحَبَّ اللَّهُ لِقاءَهُ، ومَن كَرِهَ لِقاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقاءَهُ قالَتْ عائِشَةُ: إنّا لَنَكْرَهُ المَوْتَ، قالَ: ليسَ ذاكِ، ولَكِنَّ المُؤْمِنَ إذا حَضَرَهُ المَوْتُ بُشِّرَ برِضْوانِ اللَّهِ وكَرامَتِهِ، فليسَ شيءٌ أحَبَّ إلَيْهِ ممّا أمامَهُ، فأحَبَّ لِقاءَ اللَّهِ وأَحَبَّ اللَّهُ لِقاءَهُ، وإنَّ الكافِرَ إذا حُضِرَ بُشِّرَ بعَذابِ اللَّهِ وعُقُوبَتِهِ، فليسَ شيءٌ أكْرَهَ إلَيْهِ ممّا أمامَهُ، كَرِهَ لِقاءَ اللَّهِ وكَرِهَ اللَّهُ لِقاءَهُ". لفظ مسلم.

٩٢.فيها بلاغة القرآن الكريم وعظم بيانه في هذا الوصف المعبر الجميل.

٩٣.تفيد أنَّ من الناس من يتبين لهم الحقّ من أول وهلة؛ ومنهم من يستغرق مدة في فهم وتبين الحقّ؛ وعليه؛ فإنَّه ينبغي للداعية وللعالِم أن يعطي للآخرين مساحة للتعبير والرأي والأخذ والردّ؛ وذلك في سبيل إخراج ما تعلقت به نفوسهم من الإشكاليات في فهم وتبيُّن الحقّ.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٧].

٩٤.لا تقلق في فوات ما تظنه خيراً لك ظاهرياً، فخيرة الله لك في باطن الأمر أفضل مما تظنُّ وتحسب.

٩٥.فيها أنَّ الله إذا منع عباده المؤمنين شيئا تتعلق به إرادتهم فتح الله لهم باباً أنفع لهم منه وهذه قاعدة ذكرها ابن سعدي في القواعد الحسان.

٩٦. تفيد أهمية الشوكة والسلاح في الحروب. ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾، ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾.

٩٧. فيها شدة كراهية الله للكافرين عامة، والمحاربين الصادِّين عن دينه خاصَّة.

٩٨. تفيد أنَّ ما كتبه الله لك، فلن يذهب إلى غيرك أبدا؛ وهذه من النكت في قوله: ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾، أي: أنَّها لكم دون غيركم وستصلكم لا محالة. ولو شاء لاكتفى بقوله: ﴿يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾، ولما فيه من التأكيد. وفي الحديث: "واعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطأك"؛ والإصابة هنا عامة؛ يعني: إصابة خير أو شر.

٩٩. فيها أنَّ محبَّة الأيسر من التكاليف لا ينافي الإيمان؛ لقوله: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾.

١٠٠. تفيد أنَّ إرادة الله غالبة ونافذة.

١٠١. تفيد أهمية إحقاق الحقّ، واتخاذ الأسباب المشروعة الموصلة إلى ذلك.

١٠٢. تفيد وبضميمة ما بعدها أنَّ الجهاد من أعظم المسالك لإحقاق الحقّ وإبطال الباطل. وما شرع الجهاد الا لتعبيد الناس لربِّ العالمين، ومن أهم غاياته أن تسود الشريعة أصقاع البلاد، وأن تنتشر الدعوة في بلاد المعمورة...

١٠٣. عبَّر- سبحانه- عن وعده لهم بصيغة المضارع ﴿يَعِدُكُمُ﴾ مع أنَّ هذا الوعد كان قبل نزول الآية؛ لاستحضار صورة الموعود به في الذهن، ولمداومة شكره- سبحانه- على ما وهبهم من نصر وفوز. (الوسيط في التفسير).

١٠٤. فيها أنَّ وعد الله حقٌّ وأنَّ الله لا يخلف الميعاد.

١٠٥. فيها أنَّ قطع دابر الكافرين المعاندين واستئصال شأفتهم من الأمور التي يريدها الله - ويرضاها؛ قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾.

قال تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨].

١٠٦. فيها أنَّ الأمر لله من قبل ومن بعد.

١٠٧. فيها سُنَّة الهية كونية عظيمة بأنَّ صراع الحقّ والباطل وسنه المدافعة بينهما هي منذ أن خلق آدم عليه السلام وهي جارية إلي قيام الساعة؛ ولكن الغلبة لله ورسوله وللمؤمنين ولو كره المجرمون.

١٠٨. فيها أنَّ هذه الآية المباركة ترفع الهمم وتزيد من الوتيرة الإيمانية في نفوس الموحدين؛ لأنَّ الله سيُحِقّ الحقَّ ويبطل الباطل.. فتشحذ هممهم للعمل لهذا الدين علماء ودعاة ومربين ومجاهدين.

١٠٩. قوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ...﴾ فيها: بقاء الاسلام وعزّته على مرِّ العصور.

١١٠. فيها مهما كانت قوة المعاندين فلا يمكن أن تصدَّ مراد الله عزّ وجلّ.

١١١. فيها هذه الآية جملة سيقت لبيان الحكمة الداعية إلى اختيار ذات الشوكة ونصرهم عليها مع إرادة غيرها.

١١٢. فيه دلالة على اعتبار المقاصد الشرعية؛ فكل ما ليس بحقٍ بل باطل فإنَّه لا يحقّ، ولا يسعى لإحقاق الباطل إلا أهل الإجرام؛ لأن إبطال الحقِ وإحقاق الباطل جريمة شنيعة.

١١٣. فيها فضل السعي والجدِّ في إحقاق الحقِ وإبطال الباطل.

١١٤. تقديم إحقاق الحقِ على إبطال الباطل يفيد أنَّ العالم والداعية يقدِّم تقرير الحقِ وبيانه قبل الردّ على الباطل والشبهات خصوصاً في باب الاعتقادات.

١١٥. فيها أنَّ الحقَّ حقٌ، والباطلَ باطلٌ؛ مهما شُوِّه الحقُ، وزُيِّن الباطل.

قال تعالى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

١١٦. فيها: متى ما كانت العلاقة مع الله وثيقة كانت سرعة الإجابة.

١١٧. فيها: الاستغاثة والتعلق بالله سبب لإجابة الدعاء ودفع المكروه، فالفاء سببية ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾.

١١٨. فيها النصر والإعانة والتمكين بيده سبحانه فحري بالمؤمن الحقّ ألَّا يتوكَّل إلَّا على الله ولا يثق إلَّا به.

١١٩. فيها فعل الأسباب مطلب شرعي. والله أعلم.

١٢٠. في إضافة الربِّ إلى ضمير المخاطبين تلطُّف عظيم؛ فهو سبحانه المربِّي والمصلح لشؤون خلقه.

١٢١. تفيد عناية الله تعالى ومحبته للمستغيثين به من عباده؛ فهو سبحانه وتعالى شديد الرغبة في إجابتهم وتلبية حوائجهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ ولم يقل (فأجابكم)؛ ويشهد لهذا قوله في الحديث القدسي: عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله عز وجل: «... وإن تقرَّب مني شبراً، تقرَّبت إليه ذراعاً، وإن تقرَّب إلي ذراعاً، تقرَّبت منه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» (صحيح مسلم (٤/ ٢٠٦١)؛ وقوله: (لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه...).

١٢٢. فيها معنى قول بعض السلف إنَّ الله إذا اراد بك خيراً يسَّر لك دعاءه.

١٢٣. فيها أنَّ الدعاء من أسباب النصر وتأييد الله للمؤمنين.

١٢٤. تفيد أنَّ المؤمن يعتمد على ربَّه في النصر أولاً قبل العتاد؛ بخلاف الكفَّار.

١٢٥. تذكُّر دعواتك المجابة سابقاً يقوي حسن الظن بالله تعالى.

١٢٦. من استغاث مولاه، حري أن يعطى سؤله، فإنَّ أصدق الدعاء، دعاء الغريق المستغيث خصوصاً في زمان الفتن كوقتنا هذا فقد قال حذيفة رضي الله عنه: "يأتي عليكم زمان لا ينجو فيه إلا من دعا دعاء الغريق" رواه الحاكم وصححه الألباني.

١٢٧. تفيد مدى عناية الله تعالى بعباده المؤمنين وجنده الصادقين.

١٢٨. تفيد أنَّ الله تعالى وحده هو الذي يستجيب دعاء المضطر إذا دعاه.

١٢٩. تفيد أنَّ الملائكة تقاتل مع المجاهدين في سبيله. والشواهد كثيرة.

١٣٠. تشير إلى أنَّه لا حراك للملائكة إلا بأمر ربِّها.

١٣١. فيها إشارة إلى بقاء هذه البشارة بالإمداد بالملائكة في الأمَّة؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وأمَّا قصَّة بدر فإنَّ البشرى بها عامَّة فيكون هذا كالدليل على ما روي من أنَّ ألف بدر باقية في الأمَّة فإنَّه أطلق الإمداد والبشرى وقدّم (به) على (لكم) عناية بالألف، وفي أُحد كانت العناية بهم لو صبروا فلم يوجد الشرط. (مجموع الفتاوى ١٥/٣٩).

١٣٢. تفيد أنَّ الملائكة تنزل بنظام دقيق جدا. ففعالها كله دقيق منظم. وفي الحديث: ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها. رواه مسلم. لقوله تعالى: {مردفين}، وتفيد: أنَّ الملائكة جند من جنود الله، وأنَّها نعمة ومدد من الله؛ وتصديقه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾[الأحزاب: ٩].

١٣٣. تفيد أنَّ النصر للمؤمنين يكون بأسباب ليست في حسبانهم.

١٣٤. تفيد أنَّ لله جنود السماوات والأرض.

قال تعالى:﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠].

١٣٥. فيها أنَّ العطاءات الربَّانية الجزلة قد تكون بشارة بالمزيد من الفضل والرحمة فينبغي دائما اليقين بالعطاء المتواتر من الله تعالى.. كما قال النبي ﷺ لمن قال له: إذًا نكثر.. " الله أكثر "

١٣٦. جعل الله الأسباب مبشرات لتطمين القلوب وزيادة الإيمان، فلا يظن أحد أنَّ النصر جاء من الملائكة.

١٣٧. فيها أهمية تبشير الناس دوما بنصر الله لهذا الدين فهو من أقوى ما يثبّت القلوب ويطمئن النفوس.

١٣٨. فيها أنَّ الاطمئنان بموعود نصر الله من الإيمان بالله؛ لأنَّ فيه حسن ظنّ بالله وهو من أعلى مراتب الإيمان ومن أكثره استقرارا في قلوب المؤمنين.

١٣٩. تفيد: أنَّ القلوب بيد الله، وأنَّه يجعل ما يشاء ليطمئن به قلوب أوليائه، وضده في قلوب أعدائه؛ وكما قال: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾.

١٤٠. فيها استحباب تبشير المسلمين بما يسرّهم؛ لقوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى﴾.

١٤١. فيها أنَّ نصر الله عز وجل في بداية الآية الكريمة متناسقا مع ختامها ب ﴿عَزِيزٌ..﴾، مما يؤكد أنَّ النصر الذي من عند الله جل جلاله متلازماً مع صفة العزة له سبحانه.

١٤٢. فيها الإيمان بأنَّ النصر بيد الله.

١٤٣. فيها إشارة إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[آل عمران: ١٢٣]، وقوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾[التوبة: ٢٥]. فليس النصر بكثرة العَدَد، وتوافر العُدَد، وإنَّما هو من عند الله. وهذا أعظم دافع للمؤمنين في قتالهم وجهادهم في سبيل الله.

١٤٤. تفيد أنَّ المؤمن، لا يهاب عدد ولا عتاد الكافرين؛ مهما تطورت وتنوعت؛ لأنَّه يوقن ويؤمن أنَّ النصر من عند الله وحده؛ فلا تغتر بما يروّج له الكافرون وإخوانهم المنافقون.

١٤٥. النصر متى وقع فاستبشر، ومتى تأخَّر فاثبت وتصبّر.

قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

١٤٦. لا ثبات للمجاهد في أرض المعركة إلا إذا كان قلبه قد تجذر به الإيمان الخالص بموعود نصر الله.

١٤٧. تفيد تعدد أسباب النصر.

١٤٨. قد ينصرك الله بجنود خفية لا تعلمها.

١٤٩. تفيد أنَّ جعل الله الأسباب لحكمة.

١٥٠. قوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ ...﴾ تخصيص النعاس بأنَّه من الله له مزية وفائدة، فالخائف من عدوه لا يأخذه النوم، فحصول النوم في وقت الخوف الشديد دليل على زوال الخوف وحصول الأمن. وقد يكون الخوف من جهات كثيرة ككثرة الكفار وقلة المسلمين.. فكان من فضله سبحانه حصول النعاس حتى يتمكنوا من عدوهم في اليوم التالي.

١٥١. غشي النعاس دفعة واحدة لهم وهم كثر مع الخوف أمر خارق للعادة.

١٥٢. فيها أنَّ صيغة المضارع في ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ لإيضاح واستحضار الحالة.

١٥٣. فيها التطهير قد يكون معنويا وقد يكون حسيا.

١٥٤. تفيد أن من المبشِّرات التي يستبشر بها المؤمن نزول المطر.

١٥٥. تفيد أنَّ الذي ينزِّل الغيث، هو الله وحده - وقتما شاء.

١٥٦. فيها بيان عظيم قدرة الله؛ لقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم﴾ خاصة دون غيركم؛ فإنَّه - تعالى - ينزّل المطر من السماء فيصيب به من يشاء ويمنعه عمَّن يشاء؛ مع أنَّهم تحت سماء واحدة؛ قال الله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣].

١٥٧. فيها دليل على أنَّ الأصل في المياه الطهارة.

١٥٨. فيها: حبُّ الله لعباده المجاهدين في سبيله، وعنايته بهم.

١٥٩. فيها: بيان خطر وسوسة الشيطان؛ ولا سيما فيما يتعلق بأمر الجهاد - قبل وبعد وأثناء الجهاد - كإساءة الظن بالله وتوقع الهزيمة ومهابة العدو... إلخ؛ وتصديق ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

١٦٠. تفيد أنَّ الله هو الذي يعصمك ويذهب عنك وسوسة الشيطان؛ وتصديقه: ما ورد في سورة الناس.

١٦١. فيها التحذير من الشيطان ورجزه.

١٦٢. تفيد أثر رجز الشيطان وكيده على المؤمنين إلا من عصمهم الله بفضله.

١٦٣. الأخذ بالأسباب؛ لأنَّه لو شاء لثبَّت أقدامهم بدون المطر الذي به تلبيد الأرض الرملية.

١٦٤. تفيد أنَّ الجهاد سبب في الخيرات واستجلاب رحمة الله وفضله. فكل الجهاد به خير أيّاً كانت نتائجه.

١٦٥. فيها أنَّ الأمن من الله، وأنَّ البشر مهما سعوا وبذلوا للأمن، فلن يحصل لهم إلا بإذنه سبحانه؛ لقوله: ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾. وكما قال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾[قريش: ٤]. فإذا استقر هذا، فوجب الرجوع إلى الله ليؤمّنهم في الدارين.

١٦٦. فيها: أهمية الربط على القلب – ولا يكون إلا من الله – عند الأمور العظام؛ وتصديقه: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾[الكهف: ١٤]. وعليه، فينبغي سؤال الله أن يربط على قلبك، ولا سيما عند الملمات.

١٦٧. فيها إشارة إلى: مقت الله للكافرين؛ حيث حرمهم ذلك الفضل منه، وأنَّه ما ثبَّت أولياءه إلا ليخزي أعداءه – في الدارين.

١٦٨. فيها أنَّ ثبات القلب، أصل ثبات البدن.

١٦٩. ثبات القلب من أعمال القلوب العظيمة والطهارة والوضوء من أعمال الجوارح الكبيرة (شطر الإيمان كما صح عن النبي ﷺ)...فما أعظم وأدق هذا التناسق.

١٧٠. يفيد الربط على القلوب إلى حالة انتفاء القلق وتماسك الشخصية والانتباه والتركيز العالي والمقدرة الكبيرة إلى اتخاذ القرار السليم في الموقف الصعب. ويتضح ذلك من خلال ورود عبارة الربط على القلوب في ثلاثة مواقف صعبة جدا في القرآن ومنها هذا الموقف في الحرب

والمواجهة غير المتكافئة ماديا. ومنها موقف أصـــحاب الكهف الذين أعلنوا مفارقتهم لقومهم واعتزالهم لهم. والموقف الثالث هو حالة أم موسى التي ألقت بابنها في اليمّ.

قال تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال: ١٢].

١٧١. لا أحد يســـتغني عن (معية الله) حتى الملائكة المقرّبون فهم محتاجون إلى معية الله﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ .

١٧٢. تفيد أن تثبيت المؤمنين من وظائف الملائكة الكبرى، فعلى الداعية الســـعي في تثبيت المجتمع خصوصاً في أوقات الفتن والأزمات.

١٧٣. تفيد أنَّ الملائكة عباد الله يفعلون ما يؤمرون.

١٧٤. تفيد علوُّ منزلة الملائكة تشريفهم بالوحي والمعية والامر بالتثبيت.

١٧٥. تفيد أنَّ اســـتحضـــار عالم الملائكة الأبرار في حياتنا الإيمانية لا يكون الا للموحدين المؤمنين وهي مزيه كبري.

١٧٦. الثبـــات من عنـــد الله تعـــالى، ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧]؛ ولكنَّه تعالى أمر الملائكة بتثبيت المسلمين من باب الأسباب التي قد تتعدد حسب المقام، ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ وقد يكون بالريح أو المطر أو أي شيء يتناسب مع الموقف، وقد تكون مادية أو معنويه وكان دعاء النبي ﷺ (اللهم إني اســـألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد) ومن الثبات أن تسأل الله وأنت موقن بالإجابة.

١٧٧. فيها حاجة المؤمن إلى الثبات وهو من الله ﷻ وهو الذي ييسّر أسبابه؛ لقوله: ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ .

١٧٨. فيها إشارة إلى أنَّ الإيمان من أسباب تثبيت الله لهم.

١٧٩. في الآية دروس وعبر للمجاهدين من حيث:

- إنَّ النصر مبني على عاملين أساسيين هما: ثبات المجاهد، والهزيمة المعنوية للطرف الآخر.

- استغلال لحظات الضعف للعدو وعدم إمهاله لدخول الفاء على الفعل.

١٨٠. القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء. وقد كان عامَّة دعاء النبي ﷺ: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك.

١٨١. استحضار معيَّه الله في الأزمات والملمات وفي الفتن والملاحم أكبر عامل لثبات القلب وهي من دلائل التوحيد ومن دقائق الإيمان.

١٨٢. تفيد إثبات الوحي من الله تعالى للملائكة.

١٨٣. تفيد مكانة وقدر النبي ﷺ حيث أضافه الله تعالى إلى ربوبيته.

١٨٤. تفيد حاجة جميع الخلق لمعيَّة الله تعالى ولا أحد من الخلق يستغنى عن ربِّه، فكيف بمن يدَّعون في الكون تصريف الأمور من دون الله تعالى.

١٨٥. تفيد عناية الله تعالى بعباده المؤمنين حيث سخَّر لهم ملائكته.

١٨٦. تفيد أنَّ المعيَّة، لا يلزم - بحال - أن تكون معية ذات؛ إذ لو كانت هذه المعيَّة معيَّة ذات لكفى وجوده سبحانه ولما احتيج إلى ذكر الملائكة أصلا. فإذا استقر هذا، علم ضلال من يقول أنَّ الله بذاته في كل مكان - ـ. وهذه نكتة دقيقة، وفي غاية الأهمية.

١٨٧. تفيد أنَّ الله جل شأنه يوحي إلى الملائكة أنِّي معكم دلَّ على علوِّه عنهم.

١٨٨. تفيد أنَّ الله بائن عن خلقه.

١٨٩. تفيد أثر الثبات ودوره في تحقيق النصر.

١٩٠. تفيد أنَّ ملَكاً واحدًا -كجبريل مثلا- قادر على إهلاك المشركين في غزوة بدر الكبرى بأمر الله تعالى، ولكن الله عز وجل أراد أن ينسب الفعل والانتصار للنبي ﷺ وأصحابه، وأن تكون مشاركة الملائكة مشاركة إمداد وتثبيت لقلوب عباده المؤمنين.

١٩١. تفيد أنَّ ملائكة السماء شاركت المؤمنين في قتال المشركين في غزوة بدر الكبرى؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾.

١٩٢. فيها أهمية الإيمان بالغيب للمجاهد في سبيل الله (نصرة الملائكة نموذجا).

١٩٣. تفيد بإشارة لطيفة ودقيقة أنَّه ينبغي للآمر أن يشعر المأمور بعنايته به وسعيه لتيسير بيئة العمل له، وخصوصاً إذا أراد تكليفه بأعمال ليس له خبرة فيها، وأن يزوّده بالتعليمات والنصائح لإنجاز الأعمال بصورة صحيحة وسريعة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾.

١٩٤. تفيد عناية الله تعالى بملائكته المشاركة في معركة بدر عناية خاصة، إذ شرَّفهم بالعمل على نصرة خير البرية وأزكى البشرية صلوات ربي وسلامه عليه ما تعاقب الليل والنهار.

١٩٥. تفيد أنَّ أبلغ ضربات القتال وأحكمها هي الضربة التي تكون فوق عظم العنق ودون عظم الرأس في المفصل؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ ، أو الضرب في البنان.

١٩٦. يفيد تخصيص الأعناق والبنان بالذكر في قوله تعالى: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾ إشارة إلى أنَّ ضرب أعناق المشركين فيه إتلاف لأجسادهم وإزهاق لأرواحهم، وضرب البنان فيه إبطال لصلاحية المضروب للقتال، لأنَّ تناول السلاح إنَّما يكون بالأصابع، وفي هذا إشارة من الله تعالى لملائكته بأن يجمعوا في قتال المشركين بين إزهاق أرواح بعضهم، وبين إعاقة قدرات بعضهم في أخذ السلاح لكي يجهز عليهم المؤمنون من أصحاب محمد ﷺ.

١٩٧. فيها أنَّ أحسن طرق القتل وأسرعها في إزهاق روح المقتول وإراحته هي ضرب عنقه في هذا الموضع المذكور بدقة في الآية، وقد فصّل في ذلك الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم في شرح حديث: " وإذا قتلتم فأحسنوا القتلة" رواه مسلم. وقد دلَّت علوم الطب على ذلك حيث أنَّ مركز التنفس والعلامات الحيوية أعلى العنق فضربة في هذا المكان أو ضغطة كفيلة بإزهاق الروح.

١٩٨. تفيد: أنَّ الإسلام يعلِّم أتباعه ويحثُّهم على فنون القتال في الجهاد في سبيل الله؛ لقوله: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾؛ وهذا ما يفني، ويشل ويعطل المقاتل. فأين المنافقون – الذين يتهمون الإسلام وأتباعه – من مثل هذه النصوص؟

١٩٩. تفيد: إباحة ضرب وجه الكافر أثناء القتال – بما يكون فيه قتله وهلاكه؛ لقوله: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾، فيدخل فيه الوجه قطعا؛ لما رواه مسلم في صحيحه ٥٨ – (١٧٦٣)، من حديث ابن عباس قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ، إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ، فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ...

٢٠٠. تفيد أهميَّة تعلُّم فنون القتال من حيث السرعة والضربات القاتلة والمعطلة للعدو.

٢٠١. يفيد نسبة إلقاء الرعب إليه وحده سبحانه وتعالى في قوله: ﴿سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ولم يقل (سنلقي) وذلك لئلا يتوهَّم أنَّ للملائكة المخاطبين سبباً في إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا، وإشارة إلى أنَّ هذا الرعب الموعود به رعب شديد لا يقادر قدره إلا الله، وأنَّه آت على كيفية خارقة للعادة.

٢٠٢. تفيد: أنَّ الكفر سبب الرعب والفزع وعدم الأمن؛ فالكافر ينتظر له كل الشرور قال الله: ﴿...وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾. وقال: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِ﴾.

٢٠٣. فيها أنَّ إلقاء الرعب من أسباب نصر المسلمين، وقد قال النبي ﷺ: "نصرت بالرعب مسيرة شهر" متفق عليه.

٢٠٤. تفيد مع ما قبلها أنَّ عقوبة الله تعالى الشديدة إمَّا أن تكون من عنده مباشرة كما في إلقاء الرعب في قلوب الكافرين ﴿سَأُلۡقِي﴾، أو تكون بفعل أوليائه من ملائكته وعباده المؤمنين؛ كما تقدَّم في الآيات؛ وكما قال تعالى في آية أخرى: ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ

بِأَيۡدِينَا﴾؛ أو بفعل الأعداء بأنفسهم ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾.

٢٠٥. صلة الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تفيد أنَّ الكفر والشرك هو سبب إلقاء الرعب في قلوبهم، ويؤكّد ذلك قوله تعالى: ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾.

٢٠٦. تفيد أنَّ الرعب الذي يلقيه الله تعالى في قلوب الكافرين عظيم لا يدرك مدى أثره إلا الله.

٢٠٧. فيها أهمية الحرب النفسية.

٢٠٨. فيها أنَّ الرعب والخوف من مقدمات الهزيمة.

٢٠٩. فيها تقريع ووعيد شديد للكفار وأي وعيد، انه من الله الجبار قاصم ظهور الكافرين المعاندين الذين شاقُّوا الله ورسوله.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٣].

٢١٠. فيها: جواز العطف وأن يقرن بين لفظ الجلالة واسم الرسول في مثل هذا الموطن؛ لقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾. ولأنَّ طاعة الرسول طاعة لله، ومخالفته مخالفة لله. قال ابن تيمية / في الفتاوى: "... ومن هذا الباب أنَّ النبي ﷺ كان يقول في خطبته: "من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فإنَّه لا يضر إلا نفسه ولن يضر الله شيئا" وقال: "ولا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد؛ ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد"، ففي الطاعة: قرن اسم الرسول باسمه بحرف الواو، وفي المشيئة: أمر أن يجعل ذلك بحرف " ثم " وذلك لأنَّ طاعة الرسول طاعة لله فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله، وطاعة الله طاعة الرسول بخلاف المشيئة فليست مشيئة أحد من العباد مشيئة لله، ولا مشيئة الله مستلزمة لمشيئة العباد بل ما شاء الله كان وإن لم يشأ الناس، وما شاء الناس لم يكن إن لم يشأ الله".

٢١١. فيها عناية الله بنبيِّه وحمايته له بتكرار عطف صفته على صفة الألوهية له سبحانه وإلا فإنَّ مشاقَّة الله تعالى تستلزم مشاقَّة رسوله ﷺ ضرورة..

٢١٢. فيها فضل وشرف الدفاع عن مقام النبي الكريم ﷺ فداه أبي وأمي.

٢١٣. تفيد بلاغة ودقة القرآن في استخدام الألفاظ قال الدكتور فاضل السمرائي :" حيث ورد ذكر الرسول ﷺ يُفكّ الإدغام ﴿يُشَاقِقِ﴾ كما في قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[الأنفال:١٣] وقوله تعالى ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[النساء:١١٥] وحيث أُفرِد الله تعالى تستخدم ﴿يُشَاقِقِ﴾ كما في قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[الحشر:٤].

٢١٤. فيها أنَّ مشاقَّة الله ورسوله في أمرهما تستحق شديد العقوبة.

٢١٥. تفيد مع ما قبلها أنَّ من أعظم أسباب وعوامل الهزيمة هو مخالفة أوامر الله ورسوله؛ وحتى لو صدر هذا الفعل من أي أحد كائنا من كان فإنَّ الهزيمة والعقوبة لاحقة بهم؛ وفي هذا تحذير للمؤمنين من مخالفة أوامر الله ورسوله؛ ولهذه النكتة اللطيفة أعيدت المشاقة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [الأنفال: ١٤]

٢١٦. فيها أنَّ الذوق من أقوى الحواس؛ ولذا ورد في كثير من الآيات أصناف المأكولات والمشروبات لنعيم الجنة ترغيبا وكذلك ورد طعام أهل النار ترهيبا.

٢١٧. فيها أنَّ الكفر سبب العذاب في النار.

٢١٨. فيها إثبات النار والتخويف من دار البوار.

٢١٩. تفيد: أنَّ الله أنجز وعده.

٢٢٠. فيها أن هزيمة الكافرين وقتلهم في بدر عبرة وعظة للأحياء.

٢٢١. فيها وجوب التصديق بعذاب النار في الآخرة.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴾ [الأنفال: ١٥]

٢٢٢. تفيد دقَّة التناسب وروعة التناسق مع ما قبلها فبعد أن ذكر الله ـــ استغاثة المؤمنين به وإجابتهم على الفور في الآيات السابقة، فقد يظنُّ الظانُّ أنَّ الاستغاثة والدعاء وحدهما يكفيان في الحروب، فيخشى من مواجهة العدو، فأشار ـــ في هذه الآية إلى أنَّه وإن كان النصر من عنده – إلا أنَّه يجب عليهم مكافحة العدو ومواجهته، وعدم الفرار عنه. قال أبو حيَّان: مناسبة هذه الآية لما قبلها أنَّه تعالى لما أخبر أنَّه سيلقي الرّعب في قلوب الكفار وأمر من آمن بضرب فوق أعناقهم وبنانهم حرَّضهم على الصبر عند مكافحة العدوّ ونهاهم عن الانهزام.

٢٢٣. فيها: التذكير بالإيمان عند الحضِّ على العمل؛ لأنَّ الإيمان بالشيء والاعتقاد فيه يجعلك تضحي بأنفس ما تملك من أجل الذي آمنت به.

٢٢٤. فيها: أنَّ من مقتضيات الإيمان الثبات وعدم الفرار في المعركة.

٢٢٥. فيها أنَّ الشجاعة والإقدام والثبات في مواجهة الكفار من دلائل الإيمان وصفات أهل الإيمان.

٢٢٦. فيها: دعوة للحمة الصف والكلمة التي هي مصدر القوة.

٢٢٧. فيها: تشجيع للمؤمن، وحثه على الإقدام عند القتال.

٢٢٨. فيها أن من لوازم الإيمان اجتماع المؤمنين وتكثير سوادهم ﴿زَحۡفٗا﴾ .

٢٢٩. تفيد أنَّ الثبات في المعارك والشجاعة والإقدام وعدم الفرار من الأعداء مطلب مهم في الجهاد، وسبب عظيم من أسباب نصر الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين على عدوه وعدوهم.

٢٣٠. فيها أنَّ سبب قتال المسلمين لهم ولقاءهم في ميدان المعارك هو الكفر والشرك؛ دلَّ على ذلك صلة الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

٢٣١. فيها أنَّه كما حذَّر تعالى من الفرار يوم الزحف عند الحروب العسكرية وعدَّه النبي ﷺ من الموبقات ففيها تحذير العلماء والدعاة من التخلّي عن مواقع الصدارة والقيادة وضرورة

الثبات لمواجهة الأعداء في حربهم العقدية والفكرية بالحجَّة والبيان زمن الغربة وقلَّة الناصر وشراسة الهجمة وأنَّ الفرار والتقاعس عن المواجهة الفكرية هو من التولِّي يوم الزحف.

٢٣٢. تفيد: أهمية اليقين في الله؛ في نصره في الدنيا وما أعدَّه في الآخرة لمن قتل في سبيله. وجه ذلك: أنَّه نهاهم عن التولي عند زحف الكفار، وما كان ليسلم أولياءه؛ لكنَّه أراد بهم {إحدى الحسنيين}.

٢٣٣. تفيد بمفهومها جواز التولِّي عن الكفار إذا لم يكن قد هجموا زحفاً؛ كمجموعة من الكفار يلاحقون جماعة من المسلمين من غير غزو ولا جيش. ومن هنا يظهر فائدة قوله: ﴿زَحْفًا﴾. وفي الحديث لما ذكر: "التولي"، قال: "يوم الزحف"؛ فخصَّه عند الزحف.

٢٣٤. فيها: دقة التعبير؛ في قوله: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ﴾؛ ولم يقل – مثلا –: "فلا تفروا"؛ لأنَّه إن كان ينهى عن مجرد الانصراف والتولية، وهي: جعل الظهور إلى الكفار، فالنهي عن الفرار من باب أولى. وهذا يقطع الطمع في النكوص والفرار قطعا.

٢٣٥. فيها تحريم الفرار من الزحف وأنَّه من السبع الموبقات، قال شيخ الإسلام: "ولهذا مضت السُنَّة بأنَّ الشروع في العلم والجهاد يلزم، كالشروع في الحجّ... كذلك الشروع في عمل الجهاد فإنَّ المسلمين إذا صافُّوا عدوَّاً ليس لهم الانصراف عنه حتى يفتحوه". [مجموع الفتاوى ٢٨/ ١٨٦-١٨٧]. فالجهاد جهادان كما قال ابن القيم: جهاد بالسيف والسنان وجهاد بالحجُّة والبيان وهو جهاد العلماء وهو أعظم الجهادين. ولأنَّ الله تعالى جعل الخروج لطلب العلم قسيما للخروج للجهاد في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾، وفي الحديث: "من أتى مسجدي هذا لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله" رواه ابن ماجه وحسنه الألباني. وأوجه الشبَّه بين العلم والجهاد كثيرة ولذلك عدَّه العلماء من الجهاد.. وعليه كلام شيخ الإسلام ابن تيمية قوي جداً ويزيد المسؤولية على أهل العلم وطلبته في عدم التولِّي عند زحف الشبهات الباطلة والآراء

العاطلة والأهواء المرديَّة خصـــوصـــا في هذه الأزمان المتأخرة. وبالله التوفيق. وقال ابن القيم في جلاء الأفهام: (تبليغ سنته إلى الأمم أفضل من تبليغ السهام في نحور أعدائه وذلك لأنَّ تبليغ السنن لا يقوم به إلا ورثة الأنبياء..) ص ٤١٥. فتبليغ السنن جهاد الخاصة وتبليغ السهام جهاد العامة.

٢٣٦. فيها التشنيع على الفارين من الزحف بهذا الوصف المنفِّر وهو تولية الأدبار. وعليه فيها بلاغة القرآن الكريم وقوة بيانه﴿ٱلْأَدْبَارَ﴾، ولم يقل: "الظهور". قال أبو حيان في البحر: وعدل عن الظهور إلى لفظ الأدبار تقبيحا لفعل الفارّ وتبشيعا لانهزامه.

٢٣٧. فيها: الدعوة للثبات على الحق في المعركة وغيرها. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]. قال أبو حيان في البحر: وتضـــمن هذا النهي الأمر بالثبات والمصابرة.

٢٣٨. فيجب أن نكون في كلِّ الأحوال على أهبة الاستعداد.

٢٣٩. فيها أهمية الإعداد للمواجهة، ولذلك من أكثر الناس ثباتا من يعمل لهذا الدين...

قال تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦]

٢٤٠. تفيد: أنَّ الأصل الثبات والصبر والمصابرة؛ عند القتال.

٢٤١. تفيد: مرونة الإســـلام، ونظرته العميقة للحروب وما تحتاجه من "الكر والفر". ولذا قال: "لقتال"، نكرة. يريد: أي طريقة لقتالهم، كخدعة – مثلا. وفي مثل هذه النصـــوص، رد على المنافقين الذين يزعمون أنَّ الإسلام متحجر.

٢٤٢. فيها التربية على التخطيط العســكري، وتوزيع القوات وتقوية جبهات القتال الضــعيفة بالتحيُّز إليهم وغير ذلك من وسائل القتال الناجعة والمؤثرة في النصر.

٢٤٣. تفيد أن المقاتل قد يرجع بخسران عظيم، فقد اختصت كلمة ﴿ بَآءَ ﴾ في القرآن في بالذم.

٢٤٤. فيها إثبات صفة الغضب لله سبحانه.

٢٤٥. فيها التخويف مما يوقع في غضب الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾.

٢٤٦. فيها أنَّ غضب الله موجب لدخول جهنم.

٢٤٧. تفيد أن الفرار من الزحف من كبائر الذنوب، حيث جعل الله تعالى مصير أهله النار وبئس المصير.

٢٤٨. تفيد أن الانتهاء إلى جهنم انتهاء لأسوء مصير.

قال تعالى: ﴿ فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ [الأنفال: ١٧]

٢٤٩. فيها: هوان الكفار على الله، ومقته لهم؛ حيث أخبر عن نفسه – جل ذكره – أنَّه الذي قتلهم.

٢٥٠. فيها دليل لأهل السنة في إثبات أنَّ الله تعالى خالق للعبد وفعله وأفعال، العباد أسباب مؤثرة بإذن الله وقد يتخلف المسبب مع وجود السبب لحكمة يعلمها الخالق سبحانه فهو سبحانه الفعَّال لما يريد.

٢٥١. فيها تنبيه العبد بعدم الاغترار بفعله وقوته ومهارته وذكائه فالأمور كلها بيد مالك الملك سبحانه وتعالى فلا يكون الا ما يريد سبحانه ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

٢٥٢. ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ﴾ فضيلة الرمي على غيره من أنواع القتال، ويؤيده قول النبي ﷺ " ألا إنَّ القوة الرمي، ألا إنَّ القوة الرمي" " ارموا بني إسماعيل فإنَّ أباكم كان رامياً"

٢٥٣. ليس في الآية –كما يدَّعي الجبرية ونفاة الأسباب –نفي الفعل عن العبد وإنَّما صرحت الآية بنسبته إلى العبد ﴿إِذۡ رَمَيۡتَ﴾ كما هو منسوب الى الله ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ ومما يبيّن معنى الآية

قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ...﴾ ولو كان العبد مسلوب المشيئة لا أثر لفعله لما أمرهم الله تعالى بالقتال وأوجبه عليهم. قال شيخ الإسلام ابن تيمية /: قَوْلَهُ : ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ لَمْ يُرِدْ بِهِ أَنَّ فِعْلَ الْعَبْدِ هُوَ فِعْلُ اللَّهِ تَعَالَى - كَمَا تَظُنُّهُ طَائِفَةٌ مِنْ الغالطين - فَإِنَّ ذَلِكَ لَوْ كَانَ صَحِيحًا لَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ لِكُلِّ أَحَدٍ حَتَّى يُقَالَ لِلْمَاشِي : مَا مَشَيْت إذْ مَشَيْت وَلَكِنَّ اللَّهَ مَشَى، وَيُقَالُ لِلرَّاكِبِ : وَمَا رَكِبْت إذْ رَكِبْت وَلَكِنَّ اللَّهَ رَكِبَ، وَيُقَالُ لِلْمُتَكَلِّمِ : مَا تَكَلَّمْت إذْ تَكَلَّمْت وَلَكِنَّ اللَّهَ تَكَلَّمَ، وَيُقَالُ مِثْلُ ذَلِكَ لِلْآكِلِ وَالشَّارِبِ وَالصَّائِمِ وَالْمُصَلِّي وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَطَرْدُ ذَلِكَ: يَسْتَلْزِمُ أَنْ يُقَالَ لِلْكَافِرِ مَا كَفَرْت إذْ كَفَرْت وَلَكِنَّ اللَّهَ كَفَرَ وَيُقَالُ لِلْكَاذِبِ مَا كَذَبْت إذْ كَذَبْت ...

٢٥٤. بعد أن ذكر - فيما سبق من الآيات من الأخذ بالأسباب المادية والروحية والمعنوية بين الله أنَّ كل هذا لا يحقق النصر إلا بأمر الله.

٢٥٥. الاعتماد على الله لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب.

٢٥٦. فيها تعليم لنا فمهما توفَّرت أسباب النجاح وتمَّ الاستعداد بوضع الخطط والاستراتيجيات ودراسات الجدوى وتوفير الميزانيات لابد من الاستعانة بالله وسؤال توفيقه على الدوام.

٢٥٧. تفيد: أنَّه ينبغي على العبد، إذا أنجز أمراً ووفِّق فيه، أن يردَّ الفضل إلى الله أولاً؛ كما قال: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾. وهذا يورث التواضع؛ وكما كان حال الصحابة إذا ظفروا بالنصر.

٢٥٨. فيها: ردٌّ على الماديين.

٢٥٩. تفيد﴿بَلَآءً حَسَنًا﴾ أن البلاء يكون بالخير والنعم، كما يكون بالشر والنقم، بل إنَّ البلاء بالنعمة أشدّ من البلاء بالمصيبة، ويدلُّ عليه تقديمها كما قال تعالى ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةً﴾ فيها أنَّ أهل الإيمان ممتحنون مبتلون ليظهر صدق الإيمان؛ لقوله: ﴿وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾.

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنفال: ١٨]

٢٦٠. تفيد بشارة عظيمة للمؤمنين، وتطمين لقلوب المؤمنين بأنَّ النصر حليفهم وأنَّ الله موهن الكافرين وكيدهم، قالَ ابْنُ كَثِيرٍ: هَذا بِشارَةٌ أُخْرى، مَعَ ما حَصَلَ مِنَ النَّصْرِ، فَإنَّهُ أعْلَمَهم بِأنَّهُ مُضْعِفٌ كَيْدَ الكافِرِينَ فِيما يُسْتَقْبَلُ، مُصَغِّرٌ أمْرَهم، وأنَّهُ في تَبارٍ ودَمارٍ، أيْ: وقَدْ وُجِدَ المُخْبَرُ عَلى وفْقِ الخَبَرِ، فَصارَ مُعْجِزَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ، ولِلَّهِ الحَمْدُ والمِنَّةُ.

٢٦١. فيها رفع معنوية المؤمنين بالوعد الذي لا يخلف بأنَّه مهما علا الباطل وانتفش وبطش فإنَّ الله موهن كيد الكافرين وعلى رأسهم معلمهم الأول ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ .

٢٦٢. فيها تأكيد استمرار عداوة الكافرين للمؤمنين من خلال الكيد المستمر لهم فإذا عجزوا عن المواجهة العسكرية لجأوا إلى الإضرار الخفي غير الظاهر، وهذا يستلزم الحذر وعدم الاغترار بالملمس الناعم الذي يظهرونه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ...﴾ .

٢٦٣. تفيد: أنَّ الوهن والعجز والتثبيط من الله؛ يعمله في عبده إن شاء؛ فالمخذول من خذله؛ ألا تراه يقول: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾، وفي الحديث: "كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس". رواه مسلم. وعند غيره: "والكسل". والشواهد كثيرة.

٢٦٤. تفيد: أنَّ الأمر كلَّه لله، وأنَّ الكافرين في قبضة الله وسلطانه.

٢٦٥. تفيد بمفهومها: أنَّ الله لو شاء ما أوهن الكافرين وأضعفهم، بل لو شاء لسلطهم؛ وتصديقه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾.

٢٦٦. تفيد أنَّ يتقوَّى أهل الإيمان بالله، وألَّا يهابوا الكفار مهما بلغوا.

٢٦٧. فيها: أنَّ الكفار ما تسلَّطوا على المؤمنين إلا بمشيئة الله؛ كما قال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ وفي الوقت عينه، يجب النظر والتأمل فيما يوجب تسليط العدو، والحذر من

المخالفات الشـــرعية التي توجب ذلك. والحديث عن هذا يطول. وفي النفس حاجات وفيك فطانة.

٢٦٨. فيها خسران الكافرين وضياع سعيهم ووهن أمرهم مهما ارتفعوا.

٢٦٩. فيها الاستعانة بالله عز وجل في إبطال كيد الكافرين.

٢٧٠. تفيد: أنَّ المؤمنين مهما كانت غلبتهم وقوَّتهم، فهم بحاجة إلى الله أن يضعف عدوهم.

٢٧١. تفيد قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ فإنَّ الله لما أوهن كيد الكافرين، ردَّه في نحورهم وقتلهم شر قتله.

قال تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩]

٢٧٢. تفيد مع ما قبلها أنَّ الاستغاثة سبب عظيم من أسباب الفتح الإلهي، فقد قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾. قال ابن عباس دعا أبو جهل قبل القتال أو الهزيمة: اللهم انصر أفضل الدينين وأكرم الدينين وأحبهما إليك، فاستجاب الله دعاءه ونصر محمدا ﷺ وأصحابه، يؤخذ من هذا أنَّه ما أسوأ أنَّ تكون على باطل وتظنُّ أنَّه الحقّ وتدافع عنه وتسأل الله النصر ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أهمية الدعاء والثبات على الحقِّ. اللهم أرنا الحقَّ حقّاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه.

٢٧٣. فيها مؤازرة للمؤمنين وتثبيت لهم.

٢٧٤. تفيد أنَّ المشركين يعرفون الله بل ويدعونه لكنهم لا يخلصون له الدعاء بل يدعون معه الأنداد والأموات كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

٢٧٥. تفيد أنَّ الله - يستجيب للعبد مسلما كان أو كافرا؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ ولعلماء التفسير في هذه الآية قولان: أحدهما: أنَّ الخطاب ههنا للكافرين؛ ثانيهما: أنَّ

الخطاب ههنا للمؤمنين؛ ولست بصدد ترجيح أحد القولين على الآخر؛ فإنَّ لكلّ منهما قوته في سياقه؛ وعلى كلٍّ فإنَّ الآية تدلُّ دلالة واضحة على أنَّه لا خائب مع دعاء الله تعالى وخصوصا في حال الاضطرار والالحاح؛ فأكثروا من الدعاء وألحوا في دعائكم.

٢٧٦. تفيد: أن قتال الكافرين للمؤمنين، شر ووبال عليهم.

٢٧٧. تفيد: أنَّ الله بالمرصـــاد للكافرين، وأنَّه لا يغفل عن نواياهم وأعمالهم، وما يريدون للمسلمين؛ ألا تراه يقول: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُ﴾.

٢٧٨. تفيد غباء كفار قريش وحماقتهم حيث رأوا هزيمتهم ونصـــر الله للمؤمنين ومع ذلك لم ينتهوا ولم يســـلموا، وقد اســـتفتحوا بقولهم: (اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة).

٢٧٩. فيها خطورة الدعاء على النفس خصوصا مع الظلم والاعتداء لأنَّ معنى الآية: إن تطلبوا -أيُّها الكفار- من الله أن يوقع بأســـه وعذابه على المعتدين الظالمين فقد أجاب الله طلبكم، حين أوقع بكم مِن عقابه ما كان نكالا لكم وعبرة للمتقين.

٢٨٠. تفيد أنَّ المعركة بين المؤمنين والكافرين لن تكون متكافئة أبدا؛ بل إنَّ نتيجتها معلومة، ومصيرها متقرر من قبل، وذلك لأنَّ الله تعالى قال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وعليه؛ فإنَّ من كان الله معهم وفي صفِّهم، فإنَّ أحدًا لا يشك في رجاحة وقوَّة صفِّهم على صفِّ خصمهم، بل إنَّه لا تكافؤ بينهم على الإطلاق.

٢٨١. فيها: أنَّ الكثرة لا تغني عن الكفار شـــيئا من أمر الله. وفي هذا تثبيت لأهل الإيمان وتقوية لعزائمهم.

٢٨٢. فيها: إثبات معيَّة الله وهي المعيَّة الخاصَّة بالمؤمنين وهي معيَّة النصر والعون والتأييد.

٢٨٣. أكبر نصر يحققه المؤمنون هو أن يكون الله معهم.

قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٠]

٢٨٤. تفيد وبضميمة ما قبلها: أنَّ طاعة الله ورسوله، تستوجب معيَّة الله الخاصَّة؛ لقوله قبلها: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ فعلى قدر الطاعة تكون المعيَّة.

٢٨٥. فيها: تشريف لأهل الإيمان؛ حيث خصَّهم بالخطاب دون غيرهم؛ ولأنَّهم أولى الناس بطاعته. هذا، ولم يأت في القرآن قط "يا أيها الناس أطيعوا الله ورسوله"؛ ولكن كثيرا ما يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾- وما في معناها. وفيه من النكت ما فيه. قال القرطبي في تفسيره: أفردهم بالخطاب دون المنافقين إجلالاً لهم.

٢٨٦. فيها أنَّ طاعة رسول الله ﷺ مقرونة ومتلازمة مع طاعة الله ﷻ ؛ممَّا يؤكِّد أهميَّة السُّنَّة المطهرة وأنَّها المصدر الثاني للتشريع.

٢٨٧. فيها أهميَّة تعظيم النص الشرعي (كتاباً وسنة) وهما ركيزتا الإيمان وإخلاص التوحيد.

٢٨٨. تفيد: أنَّ طاعة الله ورسوله برهان الإيمان.

٢٨٩. يفيد ذكر هذه الآية في صدد الحديث عن جهاد الكفار التنبيه على أنَّ طاعة الله ورسوله سبب النصر، ومخالفتهما سبب الهزيمة.

٢٩٠. تفيد: عدم التفريق بين الله ورسله - بين الإيمان بالله وطاعة رسله - عليهم السلام؛ قال الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[النساء: ١٥٠].

٢٩١. تفيد: العذر بالجهل؛ لقوله ﴿وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾؛ فغير ملام ومؤاخذ، من لم يطع - من عصى، لعدم بلوغه النصّ؛ وتصديقه: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾.

٢٩٢. تفيد: أنَّ سماع آيات الله وما جاء عن الله ورسوله يوجب العمل بما تسمع؛ قال الله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[الزمر: ١٨].

٢٩٣. فيها: النهي عن الإعراض عن طاعة الله ﷻ وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام بعد سماع القرآن وما فيه من المواعظ؛ وإنَّما يجب الإقبال والاستجابة؛ قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

٢٩٤. فيها: تعريض بالكافرين والمنافقين، وأنَّهم يعرضون عن آيات الله وكلام رسوله بعد سماعه؛ قال الله – عن المنافقين: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النور: ٤٧]. وقال – عن الكافرين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾[التغابن: ٦]. والشواهد كثيرة. قال ابن كثير في تفسيره: يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾ أي: تتركوا طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره.

٢٩٥. فيها: أهميَّة السمع في تلقِّي العلم، وأنَّه الأصل.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١]

٢٩٦. تفيد أنَّ العبرة بسماع القبول والانقياد لا بمجرد السماع بالأذن الجارحة.

٢٩٧. فيها بيان حال الكافرين والمنافقين في عدم اتعاظهم وانتفاعهم بسماعهم حيث يقولون بألسنتهم سمعنا بآذاننا وهم لا يسمعون.

٢٩٨. فيها نهي المؤمنين عن سلوك مسلك الكافرين والمنافقين في عدم سماع آيات الله عز وجل الداعية الى كل خير والناهية عن كل شر.

٢٩٩. فيها بيان أنَّ من سمع بأُذنه من غير فهم ولا عمل فهو كالذي لم يسمع أصلا لأنَّه لم ينتفع بما سمعه.

٣٠٠. فيها النهي عن التشبُّه بالكفار وخصوصا اليهود الذين قالوا سمعنا وعصينا.

٣٠١. فيها أهميَّة السَّماع في الاهتداء والطاعة؛ ولذلك يقول الكفار وهم في جهنم: ﴿لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾. حيث قدموا السمع على العقل مع أن أكثرهم في الدنيا كانوا يقدمون عقولهم القاصرة على الوحي الذي سمعوه.

٣٠٢. فيها أهمية التدبر والتفكر لينتفع الإنسان بما يسمع من آيات الله تعالى فلا يكون من الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون.

٣٠٣. تفيد ليس كل ما يقوله المرء عن نفسه صحيحاً.

٣٠٤. فيها عناية الله بعباده المؤمنين وإرشادهم إلى ما فيه فلاحهم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢]

٣٠٥. المقصود بهذه الآية هم المشركون هو اختيار شيخ المفسرين وعمدتهم الأمام محمد بن جرير الطبري حيث قال: وأولى القولين بالصواب قول من قال بقول ابن عباس: وأنَّه عنى بهذه الآية مشركي قريش لأنَّها في سياق الخبر عنهم.

٣٠٦. تفيد ذم من قالوا سمعنا وهم لا يسمعون، ودلالتها تشمل المشركين وغيرهم ممن تنطبق عليهم هذه الأوصاف؛ ولذا جاء بعدها حضَّ المؤمنين على الاستجابة لله ورسوله ﷺ.

٣٠٧. فيها: تنديد بالمشركين حيث أشركوا مع الله غيره وكفروا بالله ﷻ وضلُّوا عن سبيله فكانوا بحقٍّ شر الدوابِّ في الأرض.

٣٠٨. فيها: تحذير المؤمنين من الوقوع فيما وقع فيه من ضلَّ عن سبيل الله وأعرض عن هدي رسول الله ﷺ.

٣٠٩. فيها: أنَّ من خلقه الله لعبادته فكفر وأعرض عن ذكر الله فهو شبيه بالأنعام، بل أحط منزلة، كما قال سبحانه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾. فمن عطل عقله عن معرفة الحق وسماعه، كفيلٌ أن يكون صاحبه أقلّ شأناً من منزلة الحيوان البهيم.

٣١٠. فيها أنَّ الحيوانات أفضل من الكفار لكفرهم ومحاداتهم الله ورسوله وزيغهم عن طريق الحق، وذلك أنَّ تلك البهائم والحيوانات لم تكفر بالله ولا يحاسبها الله عز وجل بل تكون ترابا يوم القيامة ويوم العرض على الله، لأنَّه لا عقل لها ولا أدراك.

٣١١. فيها ما يدل على عدل الله المطلق بأن وهب هؤلاء الكفار العقل فكفروا فمآلهم إلى النار والبهائم لعدم وجود العقل لها فمآلها الى تراب. فسبحان الله ما أعظم حكمه.

٣١٢. تفيد: أنَّ الأهم قدر العبد ومقامه عند ربه؛ لقوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ ولأنَّ من البشر من يعتبر أنَّ المسلمين شرّ الناس – كذبوا –؛ كما حكى عن اليهود: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾. فالعبرة بنظرة الله للعبد، لا بنظرة الناس له. والشواهد مستفيضة.

٣١٣. فيها إشارة إلى العناية بالسمع والنطق بأن لا يسمع إلا خيرا ولا يقول إلا خيرا، بخلاف الصم البكم الذين لا يعقلون.

٣١٤. فيها ذم الصم وهو الذي لا يسمع بقلبه وإن سمع بجارحته لقولهم سمعنا وهم لا يسمعون وهذا تناسب مع الآية السابقة لكن ورد هنا كذلك ذم البكم وهو الذي لا يتكلم مما يدل على:

- أولهما: أنَّ المرء إذا سمع الحقَّ ولم يتكلم به فهو آثم بل يستوي مع الذي يسمع بجارحته فقط دون استجابة.
- ثانيا: يجوز للمرشد والمعلم الزيادة عن السؤال عند الشرح والتوجيه لمصلحة المتعلم.

٣١٥. تفيد أهميَّة ومكانة العقل ودوره في الوصول للحق والهدى ويكفي أنَّه مناط التكليف.

٣١٦. كرَّم الله تعالى آدم عليه السلام بالعلم والعقل وفضَّل أبناءه على كثير ممن خلق، فلما انحرفوا عن مسارهم الصحيح صاروا مثل الدواب بل أضلَّ منهم لأنَّ منهم من يستعمل حواسه لصدِّ الناس عن الخير، فالدواب منزوعة العقل فلها عذرها، وهؤلاء لم يستفيدوا من العقل فصاروا مثل الدواب.

قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣]

٣١٧. فيها تأكيد لعلم الله السابق بما الناس عاملون، وتأكيد لعدل الله تعالى فلا يظلم ربك أحدا، وردَّ على المحتجين بالقدر على المعاصي فلا حجَّة لهم في ذلك البتة.

٣١٨. فيها: دليل على أنَّ الله تعالى لا يمنع الإيمان والخير إلا عمن لا خير فيه والذي لا يزكو لديه ولا يثمر عنده وله الحمد تعالى والحكمة في هذا.

٣١٩. فيها أنَّ الهداية محض تفضُّل من الله وما السمع إلا سبب لمن شاء الله هدايته.

٣٢٠. تفيد أنَّ أول مَنْفذ لقبول الحقِّ هو السمع ويؤيِّد ذلك أنَّ الله تعالى يبتدأ بذكره أولاً حين يذكر الحواس ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ ، وتفيد أنَّ الله أسمع الناس القرآن بواسطة المؤمنين التالين لكتاب الله. قال تعالى ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ...﴾. إذن بالنسبة للأمة الأعجمية لا بد من تكثيف تلاوة القرآن بلغة العرب تحصيلاً للأجر وبلغة العجم أي بالترجمة تحصيلا للهداية حيث أنَّ استفادة العجم بالعربية منتفية إلا بالترجمة.

٣٢١. تفيد أنَّ التولِّي والإعراض بعد سماع الحجُّة على حقيقتها شر؛ لذلك لا بد من إيصال الحجَّة قبل الحكم على الشخص بشر من فسق أو كفر.

٣٢٢. لابد من فهم الحجَّة وليس بلوغها فقط كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ...﴾ فاشترط التبيُّن والله أعلم.

٣٢٣. فيها أنَّ من أضلَّه الله فقد أضلَّه بعلمه وعدله؛ وفي هذا جواب على شبهة عظيمة ضلَّ بها كثير من الناس في القدر.

٣٢٤. فيها: إثبات العلم لله، وأنَّه يعلم ما يكون من أفعال العباد.

٣٢٥. فيها: بيان شدَّة فرار الكافرين وإعراضهم عن كلام الله؛ وتأمَّل قوله: ﴿لَتَوَلَّواْ﴾، ولم يكتف بهذا فحسب، بل قال: ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾. وتصديق ذلك؛ قول الله: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ۝٤٩ كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ۝٥٠ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ﴾.

٣٢٦. تفيد: عدم الأسى على الكافرين؛ لأنَّهم مجرَّدون عن الخير؛ وتصديقه قول الله – على لسان نبيه شعيب عليه السلام: ﴿فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾.

٣٢٧. فيها أنَّ من أنواع الكفر كفر الإعراض والتولِّي.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤]

٣٢٨. في السياق بعد أن ذكر الله موتى القلوب والمرضى ذكر كيف تكون الحياة.

٣٢٩. فيها أنَّ الحياة الحقيقية هي حياة القلوب بالاستجابة لله والرسول.

٣٣٠. تفيد أنَّ الاستجابة لله والرسول منَّة ونعمة تستوجب الشكر.

٣٣١. هذه الآية الكريمة ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ...﴾ تأكيد لقاعدة التسليم لله تعالى ولرسوله ﷺ ولما يلزم التسليم من:

- القبول من غير تردد.
- والانقياد من غير تلكؤ.
- والاتباع من غير ابتداع.

٣٣٢. فيها أنَّ التباطؤ عن الاستجابة لله والرسول من أسباب الانتكاسة، وعدم الثبات على الدين ؛ ولذا فإنَّ فعل الطاعات من أعظم أسباب الثبات على الدين، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا﴾.

٣٣٣. فيها أنَّ القرآن الكريم وسنة النبي الكريم ﷺ هما مصدر التشريع للأمَّة.

٣٣٤. فيها ردٌّ مباشر وواضح وجلي على من ادَّعي أنَّ القرآن وحده كافٍ للتشريع وللتعبد ولا حاجة لنا للسنة المشرفة المطهرة؛ فأنَّ الذي يدَّعي اتباعه للقرآن فقد ناقض نفسه لأنَّ الآيات المباركة تأمر باتباع أوامر رسول الله ﷺ.

٣٣٥. فيها: أنَّ الوحي حياة القلوب وروحها؛ فبقدر إقبالها عليه وتمسُّكها به تقوى وتحيا، وبقدر إدبارها عنه وتقصيرها فيه تضعف وتموت.

٣٣٦. تفيد أنّ طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله تعالى؛ ولذا أفرد الضمير فقال: ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾

٣٣٧. فيها أنَّ الأوامر الشرعية فيها السعادة في الحياة الدنيا.

٣٣٨. فيها: أنَّ قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الله تعالى ثباتاً وزيغاً؛ فمن شاء أقامه ومن شاء أزاغه؛ وفي الدعاء المأثور: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك.

٣٣٩. الإشارة إلى أهمية العناية بالقلب (الا وأنَّ في الجسد مضغه) الحديث

٣٤٠. تفيد وجوب وجل العبد من تقلُّب القلوب وسؤال الله على الدوام الثبات فلا تري النفس لعل عدم استجابة لأمر قد يوجب تحول القلب والعياذ بالله يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك.

٣٤١. تفيد مع ما قبلها أنَّ أعظم الفتن وأشدَّها على المرء أن يحال بينه وبين قلبه في عمل الصالحات والاستجابة للطاعات؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾؛ وقال تعالى في آية أخرى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ...﴾ وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾. اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك؛ ويا مصرِّف القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك.

٣٤٢. فيها الترغيب في التوبة والانابة قبل فوات الأوان.لقوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾. مهما بلغت من الجهد والعمل، لا تأمن قلبك.

٣٤٣. تتجلَّى في هذه الآية -وكلِّ آيات القران- عناية الله بخلقه وتوجيههم إلى فلاحهم وفوزهم بالحياة الحقيقية.

٣٤٤. تفيد احتياج الإنسان إلى معرفة الأسباب والدوافع لتحفزه على الهدف.

٣٤٥. فيها ترهيب للكافرين الذين لم يستجيبوا، وترغيب وتقريب لمن استجاب في قوله:﴿إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ .

قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]

٣٤٦. تفيد مع ما قبلها أنَّ مخالفة أوامر الله ورسوله وعدم الاستجابة لهما توقع العباد في العقوبة وتصيبهم بالفتنة؛ قال تعالى في آية أخرى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٣٤٧. تفيد بدلالة المناسبة مع ما قبلها أنَّه "وعقب تحريضُ جميعهم على الاستجابة، استلزم تحذيرهم من ضدِّها بتحذير المستجيبين من إعراض المعرضين، ليعلموا أنَّهم قد يلحقهم أذى من جراء فعل غيرهم إذا هم لمْ يُقَوِّموا عِوَج قومهم، كَيلا يحسبوا أنَّ امتثالهم كاف".

٣٤٨. وجوب اتقاء الفتن قبل استفحال شأنها وقبل أن يعمَّ شرُّها، فتنكير ﴿فِتْنَةٌ﴾ يفيد التهويل والتخويف نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

٣٤٩. الخطاب الجماعي ﴿وَاتَّقُوا﴾ يفيد مسؤولية الأمَّة عن اتقاء الفتن بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ على أيدي الظالمين، وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

٣٥٠. فيها أنَّ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عقوبته شديدة ومآلاته عظيمة، وأيّ مآل أعظم وأشد بأن الله جل وعلا يتوعد بشدة العقاب، وقد تكون الفتنة عقاباً دنيوياً.

٣٥١. بذل الوسع في درء الفتن وسدِّ أبوابها سبب في نجاة الجميع حتى الظلمة أنفسهم.

٣٥٢. فيها شؤم مجاورة الظالمين فهي مظنَّة الاصطلاء بنار عقوبة الله إذا نزلت بالظالمين.

٣٥٣. للمعصية شؤم عجيب وأعظم تلك المعاصي هي الظلم بكل صوره وأشكاله.

٣٥٤. تفيد قول رسول الله ﷺ: " إنَّ الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه، يوشك الله -عز وجل- أن يعمَّهم بعقابه" سنن ابن ماجة، كتاب الفتن/٤٠٥٣.

٣٥٥. وجوب قيام الأمَّة بدورها في ردع الظالم والأخذ على يد المتعدي.

٣٥٦. أهميَّة الدراسات الاجتماعية لأيّ ظاهرة مستحدثة في المجتمع للوقوف على آثارها ونتائجها المتوقَّعة قبل وقوعها ﴿وَاتَّقُوا﴾. طالما قال الزُّبَيْر بْن الْعَوَّام: "قَرَأْت هَذِهِ الْآيَة زَمَانًا وَمَا

أُرَانَا مِنْ أَهْلِهَا، فَإِذَا نَحْنُ الْمَعْنِيُّونَ بِهَا... " وجب علينا وقد تطاولت القرون بيننا وبين خيرها، إعلان النفير وأخذ الحيطة وبذل الوسع في اتقاء الفتن ودرئها بكل حيلة ووسيلة.

٣٥٧. تفيد الوقاية خير من العلاج.

٣٥٨. تفيد عدل الله - حيث لا يأخذ بالعذاب إلَّا بعد التنبيه والتحذير.

٣٥٩. تفيد وبضميمة ما قبلها: أنَّ الله بيده عصمة عبده من الفتنة؛ لقوله قبلها: ﴿ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾.

٣٦٠. فيها أنَّ الظلم (وأعظمه الشرك) هو سبب الفتن والبلاء والعذاب.

٣٦١. فيها التخويف من عقاب الله ﷻ لوصفه بالشديد مع التحذير من أسبابه ومنها الظلم.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦]

٣٦٢. فيها قيمة التذكير بفضل الله تعالى في تحويل الحال من ضرٍّ إلى يسر، ومن ضيق إلى سعة، ومن قلة إلى كثرة، ومن ضعف إلى قوة؛ فهذا يلامس الشعور البشري في عمق الذي لا يمكنه انكاره وجحده.. فيكون أدعى للاستجابة بإذن الله.

٣٦٣. فيها حثُّ الأمَّة على الكثرة والقوة فهي من أسباب القوة والمهابة بين الأمم لأنَّه امتنَّ عليهم بالإخراج من حالة القلة والاستضعاف ﴿قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ﴾ إلى الكثرة والقوة. وفي الحديث: "تزوَّجوا الودود الولود فإني مباه بكم الأمم".

٣٦٤. فيها أنَّ المؤمن لا يقبل بالاستضعاف ولا يبقى فيه؛ ولذلك شرعت الهجرة وكانت من أسباب القوة والنصر.

٣٦٥. ضعف الإنسان إذ يعتريه النسيان وعظمة الخالق وما كان ربك نسيا.

٣٦٦. فضل الفئة القليلة التي كابدت بدايات الدعوة.

٣٦٧. تفيد أنَّ الخوف الطبيعي لا يخدش في الدين إذا كانت له مسبِّباته.

٣٦٨. تفيد رحمة الله بأهل الايمان في كل أمر ونهي حتى في الوعيد الشديد (حتى لا يفرِّط في أمر عظيم وهو في مصلحته) ولله المثل الأعلى كمن يتوعد ابنه الحبيب بعقوبة شديدة حال تفريطه في أمر عظيم فيه مصلحته.

٣٦٩. فيها أنَّ القلَّة والاستضعاف والخوف يعقبها الإيواء والتأييد والنصر والرزق متى ما استجاب المؤمنون لله ورسوله ﷺ، وتلك سُنَّة الله التي لا تتخلَّف، وهي من المبشِّرات في زمن الاستضعاف، وما أحوجها لنا في زماننا هذا الذي نعيش فيه، فتن كبري عمَّت وطمَّت حتى أنَّ الحليم أمسى وأصبح حيران في زمن كثرت فيه الفتن وتقلَّبت فيه الأحداث بشكل مخيف.

٣٧٠. تفيد مع الموضوع الكلي للسورة وهو (الجهاد في سبيل الله) أنَّ من أعظم أسباب النصر والتمكين على الأعداء هو وجود البيئة المناسبة والحاضنة المؤوية؛ والله ﷻ آوى نبيَّه محمدا ﷺ وعباده المؤمنين المهاجرين في المدينة؛ وكانت حاضنة مناسبة جدا ومهيَّأة تماماً من كل الجوانب لانطلاق الدعوة وإنشاء الدولة الإسلامية؛ ثم أيَّدهم بنصره في غزوة بدر؛ مؤذنة ببدء الفتوحات والانتصارات الإسلامية؛ وفي هذا إشارة إلى أهميَّة وعظم هذه القضيَّة الاستراتيجية في قواعد الحرب والسلم في الماضي والحاضر والمستقبل.

٣٧١. تفيد مع ما قبلها أهميَّة تذكُّر القادة والجنود واسترجاعهم للأحداث والوقائع التي مروا بها في مراحلهم الجهادية السابقة؛ وخصوصاً عقب الانتصارات والفتوحات العظيمة؛ وذلك لئلا يصيبهم البطر والكبر ويفتتنوا بهذه الانتصارات وينسوا المؤوي والمؤيد والمنعم الرازق -.

٣٧٢. فيها أنَّ المأوى من أعظم النعم؛ ولذلك امتن الله تعالى به هنا؛ فعلينا أن نشكره تعالى على هذه النعمة، وعن أنس أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قال: (الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا فكم ممن لا كافي له ولا مأوى) . رواه مسلم.

٣٧٣. تفيد أنَّ نعمة وجود المأوى الآمن وتوفر العدد البشري من أسباب جلب الأرزاق ووفرته، لا نقصانه وانعدامه، ولهذا أخَّر - الرزق، فقال تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

٣٧٤. فيها أنَّ النصر والتأييد من عند الله العزيز الحميد.

٣٧٥. فيها الحرص على الرزق الطيب الحلال.

٣٧٦. تفيد شدَّة عناية الله بعباده المؤمنين مهما كان حالهم، فهم قلَّة مستضعفة وحالهم يخافون أن يقضي عليهم عدوهم في طرفة عين ﴿يَتَخَطَّفَكُمُ﴾ ولكن من يقدر مس من حفظه ربه وآواه.

٣٧٧. تفيد أن الشكر يزيد النعم قال ﷺ للسيدة عائشة رضي الله عنها (يا عائشة أكرمي جوار النعم قلما نفرت من اهل بيت وكادت أن ترجع إليهم) وقيّدوا النعم بالشكر، قال تعالى ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ وقال تعالي ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ اللهم اجعلنا جميعا من القليل.

٣٧٨. في الآية الكريمة بيان الصِّلة الوثيقة بين تذكر النعمة والتوفيق لشكرها فكلما كانت النعم ولو تقادمت حاضرة في القلب والعقل شكرت نوعا من الشكر إما بشكر الاعتراف بالمنَّة، وإما باللسان حمدا، وإما بالجوارح ازديادا من العبادة وبعدا عن المعصية.. فاللهم لك الحمد على نعمتك.

٣٧٩. فيها الأمر بالشكر والاستمرار عليه كما يفيده الفعل المضارع ﴿تَشْكُرُونَ﴾.

٣٨٠. تفيد بإشارة لطيفة إلى فضيلة الأنصار وأهل دار الهجرة والمأوى الذين آووا ونصروا وتقاسموا الأرزاق مع النبي ﷺ والمهاجرين. لقوله تعالى: ﴿فَآوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. وكل ذلك كان حصل عن طريق الأنصار رضي الله عنهم وأرضاهم؛ قال تعالى في هذه السورة: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾. وقال أيضا: ﴿وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ...﴾.

٣٨١. تفيد أنَّه بوجود الشكر يدوم أمر هذه الأمَّة ويكون في تصاعد، وبانعدامه يزول تأييد الله لهم وتضعف قوَّتهم وشوكتهم، ويكون أمرهم في تراجع وأفول.

٣٨٢. ولهذا فإنَّ من أعظم أسباب النصر والتمكين، هو شكر الله تعالى على نعمائه وآلائه، فإنَّه بشكر الله تعالى تستزاد النعم، وتجتلب المنح.

٣٨٣. أهمية أخذ الدروس والعبر من تاريخ الأمة؛ لأن الخطاب وإن للصحابة بالأصالة فهي لنا بالعبرة والتذكرة.

٣٨٤. فيها أنَّ تأييد الله بالنصـــر والعزة والرزق الطيب المبارك يســـتوجب من عباده المؤمنين الموحدين أنَّ يشكروه ويمجِّدوه ويعظمّوه سبحانه وذلك بحمده وشكره باللسان والذكر وعبادته وتوحيده حقَّ عبادته، وأن يسلموا له تسليما كاملا مطلقا في كل شؤونهم، وأن يطيعوه في كل أوامره ويجتنبوا كل ما حرَّم ونهى. بذلك يكون الشكر له سبحانه على ما وهب وأعطى ورزق ونصر وأيَّد.

٣٨٥. تفيد رحمة الله وجوده ليس بتكرُّمه بالإنعام وحسب بل بتذكيره بها لنستشعرها ونقوم بواجب شكرها.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٧]

٣٨٦. تفيد أنَّه من أساليب التأثير؛ التمهيد بذكر التفضُّل والإنعام ليظهر قُبح الإساءة في حقِّ صاحب الفضل.

٣٨٧. فيها: أنَّ على المسلم أن ينهض بحق الأمانة التي تحمَّلها وأن يحذر من الإخلال فيها حيث عاهد الله ﷻ بتحملها والقيام بحقها قال الله ﷻ : ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُ...﴾الآية.

٣٨٨. فيها: عظم جريمة خيانة الأمانة وأنَّ لها الأثر السيء على النفس والمجتمع.

٣٨٩. تحريم الخيانة مطلقًا، وأقبحها ما كان خيانةً لله والرسول.

٣٩٠. تفيد مع الوحدة الموضـــوعية للســـورة أنَّ الخيانة في الجهاد من أعظم الخيانات إذ هي سبب للفشل والهزيمة، ومن ثم إتاحة الفرصة للأعداء للإثخان في المجاهدين، فلو أنَّ شخصا واحدا من المجاهدين خان وأدلى بمعلومات للأعداء، أو انتقل من الموقع الذي أوكلت إليه

حراســـته لحلَّت الهزيمة والنكبة والكارثة في جيوش المجاهدين، وبالتالي يتجرع مرارة هذه الكارثة جميع المســلمين، وقد حصــل عن بعض الصــحابة شــيء من هذا في غزوة أُحد، كما أنَّ من الخيانة أيضا عدم طاعة ولي الأمر أو أمير الجيش إذا رأى أنَّ المصلحة تقتضي مواجهة العدو أو عدم مواجهته، وقد حصــل جدال عن بعض الصــحابة في بداية الأمر في غزوة بدر مما تحدَّثت عنه بداية السـورة. وكما أنَّ من الخيانة أيضـا ما يحصـل في الغنائم وقسـمتها، وأخذها من دون حقّ وهو ما يسمى بالغلول، وهذا ما حامت حوله قضية الأنفال التي ذكرت في بداية السورة. والخلاصة؛ أنَّ الخيانة من أكبر الكبائر.

٣٩١. تفيد أنَّ حفظ الأمانة وأداءها وعدم إضاعتها أو التهاون بها، لها شأن عظيم في استقامة أحوال المسلمين عموما، وهي دليل نزاهة النفس واعتدال أعمالها، ولو أنَّ جميع المسلمين التزموا بهذا الخلق العظيم الذي حثَّنا عليه ديننا الحنيف، لما احتجنا إلى إنشـاء هيئات لمكافحة الفسـاد والمفسدين.

٣٩٢. عدم التعجُّل بتكفير المعيَّن أو وصـفه بالنفاق وإن ظهر في فعله خيانة لله ورسـوله لجهل أو تأويل (قصة حاطب ﷺ).

٣٩٣. جمع الأمانة وإضافتها إليهم ﴿أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ يدل على كثرتها وثقل حملها؛ ولذلك اشفقت منها السماوات والأرض والجبال.

٣٩٤. فيها إشـارة إلى أنَّ العلم ينبغي أن يزجر صـاحبه عن المعاصـي ومنها خيانة الأمانة وإلا كان وبالاً وحجَّة عليه.

٣٩٥. أنَّ زلَّة العالم بدين الله ليســت كزلَّة غيره من عامة الناس؛ ووجه الدلالة تذييل الآية بذم من يفعل ذلك والحال أنَّه يعلم. وهذا مستفاد من إعراب الواو في: ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ بأنَّها حاليَّة.

قال تعالى: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ [الأنفال: ٢٨]

٣٩٦. تفيد مع ما قبلها أنَّ الأموال والأولاد أمانات في أعناق أصحابها؛ فعليهم تحمُّل مسؤولياتهم تجاه هذه الأمانات وذلك بالطريقة التي أمرهم الله تعالى؛ وبالصورة التي ترضي الله جل جلاله؛ حيث قال تعالى في الآية السابقة: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾. وعليه؛ فإن لم يقم بخيانة هذه الأمانات؛ بل قام بتحمُّل مسؤولياته تجاهها خير قيام؛ فإنَّ الله ﷻ سيأجره عليهما وسينجيه فتنتهما؛ وسيقيه شرهما. ومن هنا يظهر للمتأمِّل والمتدبِّر دقَّة التناسب وسر التناسق الموضوعي بين هذه الآية والتي قبلها.

٣٩٧. فتنة المال ملازمة لكل إنسان لا تنفك عنه لقيام ضروريات الحياة عليه من مأكل ومسكن وغيره بينما يمكن أن يعيش الانسان عمره من غير ولد ولعلَّ هذه واحده من أوجه تقديمه.

٣٩٨. سبحان الله كيف جعل أحبَّ شيء إلى الإنسان في دنياه (المال والولد) فتنة وهو سبحانه الذي وصفهما بقوله ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فهذا يوقف العبد على حقيقة الدنيا لا رفض ولا تهالك. يكون معها دائما على الحياد والضفاف.

٣٩٩. فيها: أنَّ على المسلم أن يكون يقظا وحذرا حتى لا يستغرق فيما أعطاه الله عز وجل وينسى أمر الله وطاعته فيحصل له الإخفاق فيما ابتلي وامتحن به.

٤٠٠. فيها تصديق لحديث النبي ﷺ بأنَّ الولد مبخلة مجبنة محزنة مجهلة، وهذا بحد ذاته فتنة كبيرة للمؤمن وفيها ابتلاء وامتحان للمؤمن لأنَّ حبَّ الولد يقعده عن الجهاد فيخاف أن يجاهد فيقعده حبُّ ولده، ويريد أن يتصدق بماله فيفتنه حب ولده وتعلقه به عن الصدقة ويوسوس له الشيطان بأن ولده أولى وهذا اختبار حقيقي لحقيقه الارتقاء الإيماني.

٤٠١. فيها إشارة إلى معرفة الفتن وأسبابها وكيفية النجاة منها؛ لقوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ ومن فقه أئمة السنة وجود كتاب الفتن في أغلب كتب الحديث ككتاب الفتن في صحيح البخاري وكتاب الفتن في صحيح مسلم وغيرها.

٤٠٢. فيها أهمية معرفة الفتن والشر للحذر منها كما قال حذيفة بن اليمان ﷺ: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني. رواه البخاري، وكان حذيفة من أعلم الناس بالفتن، وقال الشاعر:

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ومن لا يعرف الخير من الشر يقع فيه

٤٠٣. الأمر بصيغة الجمع ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ فيه إشارة إلى أنَّ الأمَّة عليها أن تنتدب من يدرس الفتن ويتخصص فيها ويبيّن للأمَّة كيفيَّة التعامل معها كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ .

٤٠٤. فيها دعوة لقيام مراكز تخصصية واستشارية في الفتن وما يتعلق بها خصوصا في هذه الأزمنة التي كثرت فيها الفتن. والله أعلم.

٤٠٥. تفيد دقة اختيار اللفظة القرآنية، فكلمة فتنة لها مدلولات واسعة يطول شرحها.

٤٠٦. تفيد أن الفتنة لا تذم إلا بنتيجتها.

٤٠٧. فيها: التنبيه والتحذير ممَّا يشغل عن الله؛ وتصديقه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾[التغابن: ١٤].

٤٠٨. تفيد: أنَّ العطاء فتنة، ومثله الحرمان؛ قال الله: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾.

٤٠٩. تفيد أن السائر إلى الله صاحب هدف ورؤية واضحة لا يلتفت عنه بالعلائق والقواطع.

٤١٠. تفيد أن تقديم محابّ الله على محابِّ النفس سر نجاة.

٤١١. فيها تسلية للفقير والعقيم (رغم أنَّهم مبتلون من وجه آخر)، ولذلك استدل بعض أهل العلم من هذه الآية على أنَّ الاشتغال بالنوافل أفضل من الاشتغال بالنكاح؛ لأنَّ الاشتغال بالنوافل يفيد الأجر العظيم عند الله، والاشتغال بالنكاح يفيد الولد ويوجب الحاجة إلى المال، وذلك فتنة، ومعلوم أنَّ ما أفضى إلى الأجر العظيم عند الله، فالاشتغال به خير مما أفضى إلى الفتنة؛ والله أعلم.

٤١٢. تفيد رحمة الله تعالى بعباده حيث علَّمهم تجنُّب ما يضرهم.

٤١٣. تفيد جواز المبالغة في التحذير والترهيب من الأمور التي يقع فيها الناس كثيرا؛ حيث جعل ههنا نفس الأموال والأولادِ فتنة مبالغة في التحذير والترهيب؛ وذلك لكثرة حدوث فتنة المرء مِن جرَّاء أحوالهما، فكأن وجود الأموال والأولاد نفس الفتنة.

٤١٤. فيها من أعظم ما يعصم من فتنة المال والولد تذكر ما أعده الله تعالى للمستجيبين له ولرسوله من الأجر العظيم والنعيم المقيم.

٤١٥. تقرر الآية علم الله وإحاطته بالحقائق الواضحة لنا والخفية عنَّا.

٤١٦. تفيد أنَّ ما عند الله من ثواب فتن المال والولد لمن ينجح فيها أعظم ممَّا يتصور العبد الذي يركن إليها، ولا يجعلها في رضى ربه.

٤١٧. تفيد أهميَّة العلم ومكانته في الوقاية من الفتن.

٤١٨. تفيد أهميَّة الجمع بين الترهيب والترغيب في الخطاب الواحد.

٤١٩. فيها: الحرص على طلب الثواب والأجر العظيم من الله ﷻ وعدم الحرص على جمع المال وحب الولد.

٤٢٠. تفيد: أنَّ الله لا يُحذِّر عبده من شيء - مهما غلا - إلا لخير له فحسب؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾.

٤٢١. تفيد: أنَّ الله غني عن طاعة خلقه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩]

٤٢٢. تظهر المناسبة بينها وبين الوحدة الموضوعية أو الموضوع الكلِّي للسورة وهو (الجهاد في سبيل الله)؛ وقد أشرت إلى ذلك في رسالتي السابقة.

٤٢٣. تفيد أنَّ التقوى من أعظم أسباب النصر؛ فقد قيل في معنى قوله: ﴿فُرۡقَانٗا﴾: أي نصراً ونجاة كقوله: ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾ وبهذا تظهر المناسبة بينها وبين الآيات السابقة.

٤٢٤. فيها بيان ثمرات التقوى من نور البصيرة وتكفير السيئات ومغفرة الذنوب وذلك هو الفضل العظيم.

٤٢٥. فيها: عظم رحمة الله بالمتقين.

٤٢٦. فيها: أنَّ أعظم زاد يتزوَّد به المسلم في هذه الحياة هو التقوى حيث فيها حياة القلوب وتنوير الطريق وازالة اللبس وهي عنوان السعادة وعلامة الفلاح.

٤٢٧. أهميَّة التقوى وأنَّها من أعظم ما يُعين المسلم على النجاة والمخرج من الفتن قال ابن وهب: سألت مالكاً عن قوله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ قال: مخرجاً، ثم قرأ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾.فمن الفرقان الذي يؤتاه المتَّقي أنَّ يُرزق البصيرة في زمن الفتن.

٤٢٨. تفيد: أنَّ المعاصي (فعل ذنب – ترك طاعة)، تعمي عن معرفة الحق من الباطل. وهذا من أسباب انتشار الجهل في الناس، فكلما ركبوا المعاصي، بعدوا عن الحقِّ ومعرفته.

٤٢٩. تفيد: أنَّ المعاصي (الكبائر) لا تخرج من الملَّة، وأنَّ الإيمان يزيد وينقص؛ لأنَّه أثبت لهم الإيمان قبل تحقيق التقوى، وتكفير السيئات وغفران الذنوب.

٤٣٠. عرف وعادة القرآن في محو الذنوب، يستخدم مصطلح تكفير السيئات للذنوب الصغائر، ويستعمل المغفرة للكبائر كما يدل عليه قول الحبيب ﷺ " الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة ورمضان الى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر".

٤٣١. فيها أنَّ التقي له حس مرهف تجاه الأحداث فلا يقع في فتنة بحول الله.

٤٣٢. يفيد التذييل بقوله تعالى:﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٖ﴾ التعليل لما قبله، والتنبيه على أنَّ ما وعد به – سبحانه– المؤمنين على تقواهم إنَّما هو تفضُّل منه عليهم، فهو– سبحانه– صاحب العطاء الجزيل، والخير العميم.

قال تعالى:﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال:٣٠].

٤٣٣. التعبير بـ (المكر) يشعر بعظمة هذا الدين وقوَّة حجَّته، إذ لا يستطيع أعداؤه أن يقابلوا الحجَّة بالحجَّة.

٤٣٤. فيها: بيان ما كان عليه كفَّار قريش من العداوة لدعوة الإسلام ومعاداة من يدعو إليها.

٤٣٥. كل الأنبياء قوبلت دعوتهم بالتهديد بالقتل أو السجن أو النفي، فمن سلك طريق الأنبياء في الدعوة إلى الله لا بد أن يصيبه الأذى قلَّ أو كثر.!

٤٣٦. فيها بيان أنَّ الكفَّار يضيقون ذرعاً بالأنبياء وأتباعهم، وما حيلتهم أمام نور الحق إلَّا السجن أو القتل أو التهجير. ولكنَّها تنقلب في حقِّ المؤمن الصابر منحاً كما قال ابن تيمية: (ما يفعل أعدائي بي أنا جنتي وبستاني في صدري ، أين رحت فهي معي ، إن سجني خلوة وقتلي شهادة وإخراجي من بلدي سياحة)..

٤٣٧. فيها أنَّ السجن والقتل والنفي هي غاية العقوبات التي يفعلها أعداء الدين بالدعاة والمصلحين على مرِّ العصور وهي إن تأمل فيها المؤمن يجدها خيراً له.

٤٣٨. تعميم المكر على الذين كفروا، مع أنَّ الذين مكروا به ﷺ هم السادة وأولي القوة، لأنَّ البقيَّة كانوا موافقين لزعمائهم ضمنياً.

٤٣٩. فيها: أنَّ الحرب على الإسلام مستمرة، وإجهاض الدعوة بعقد المؤتمرات وحبك المؤامرات ضدها مستمر، وهي قضيَّة قديمة متجددة للفعل المضارع ﴿وَيَمۡكُرُونَ﴾ المفيد الاستمرار والتجدد، وعليه فتحتاج لوقفة من أهل العلم والدعوة صادقة متجددة بوسائل عصرية لكشف خطط الكافرين وفضح مكرهم مستمدين العون والسند من ربِّ العالمين.

٤٤٠. فيها تسلية لمن مكر به لأجل دينه.. حيث أثبت الله مكر أعدائه بنبيه ﷺ .. وهو سيد الأولين والآخرين بأبي هو وأمي.

٤٤١. فيها: إشارة إلى دوام نصرته عليه السلام من الله وكذلك من المؤمنين.

٤٤٢. تفيد أنّ من وسائل الأعداء التمويه والتضليل في إبعاد الناس عن الحقِّ.

٤٤٣. فيها: تذكير الله ﷻ لرسوله ﷺ بما أنعم به عليه من انقاذه من مكر أعداءه.

٤٤٤. فيها: أنَّ كل من يسعى في عداوة هذا الدين فإنَّ الله ﷻ يبطل مكره وكيده ويخيّب سعيه ويجعل الدائرة عليه.

٤٤٥. فيها: عظيم قدرة الله ﷻ فهو القادر القاهر الغالب على أمره حيث نجا رسوله ﷺ من كيد أعداءه وردَّهم على أعقابهم خاسرين.

٤٤٦. التأكيد على أنَّه: لا يحيق المكر السيء إلَّا بأهله. فمهما بلغ عظم مكرهم ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا﴾ فهو أمام مكر الله تعالى ليس بشيء ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ﴾ والنتيجة محسومة ومعروفه ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾. ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾. فيا لخسارة من مكر الله به ولهذا كان من الدعاء المأثور (وامكر لي ولا تمكر علي).

٤٤٧. فيها إثبات أنَّ لله سبحانه مكر؛ ولكن مكر يليق بجلاله سبحانه. ليس كمثله شيء.

٤٤٨. عدم الاستخفاف بمكر الأعداء وإنكاره للإعداد المناسب لمواجهته، وهذا لا يتعارض مع اليقين بـ ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال:٣١]

٤٤٩. تفيد دقَّة التناسب وروعة التناسق مع ما قبلها؛ فبعد أنَّ ذكر الله - مكرهم بنبيه محمد ﷺ ذكر مكرهم بآياته المنزلة على نبيه محمد ﷺ؛ وفي هذا إشارة إلى أنَّ الكفار لا يهدأ لهم بال ولا يهنأ لهم عيش إلَّا بعد المكر والإطاحة بكلِّ ما له صلة بدين الإسلام؛ بدءاً بذات النبي ﷺ، ومروراً بالآيات والشريعة المنزَّلة عليه، وانتهاء بأتباعه ورموزه.

٤٥٠. تلاوة القرآن وتبيين معانيه للناس من أعظم وسائل الدعوة.

٤٥١. فيها مناسبة لموضوع السورة بتقديم الدعوة للكفار قبل الجهاد، وأنَّ دعوتهم تكون بالقرآن الكريم بتلاوة آياته، والدعوة به من الجهاد كما قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ أي بالقرآن العظيم. والله أعلم.

٤٥٢. التعبير بالمضارع المبنى للمجهول يفيد اجتهاد النبي ﷺ والصحابة في دعوتهم وتلاوة القرآن الكريم عليهم بجد واستمرار.

٤٥٣. جمع الآيات وإضافتها إلى الله ﷻ يفيد عظمتها وكثرتها وبيانها وجمالها وفضلها.

٤٥٤. فيها مشروعية سماع القرآن تعبُّداً وأنَّ سماع تلاوته هي عباده عظيمة ترفع من وتيرة إيمان السامع وخاصة إذا كان السامع لتلاوة آيات القرآن متدبِّراً خاشعاً متأملاً.

٤٥٥. تفيد شدَّة مكرهم وجحودهم للدين.

٤٥٦. تفيد أنَّ الكفر ملَّة واحدة فقد قالوا مثل ما قال الأولون ولم يتعظوا بمن هلك قبلهم من الأمم.

٤٥٧. تفيد أنَّ أسلوب التشويه والطعن بمصادر الدين الإسلامي؛ وقلب الحقائق وتزييف المصطلحات وإثارة الشكوك حول أصالتها ومصداقيتها، أسلوب قديم من أساليب الكفار والمناوئين له في كل عصر وزمان؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، وقد طوَّر المستشرقون في العصور المتأخرة هذا الأسلوب الخبيث الذي ابتدأه كفار قريش؛ فأصبحوا يدسون السم في العسل في جميع ما يتعلق بدين الإسلام ومصادره ورموزه؛ فلم يتركوا شاردة ولا واردة؛ وكل ذلك من أجل الترويج لأفكارهم ومعتقداتهم؛ وإثارة البلبلة والشكوك في نفوس المسلمين ومن يرغب في الدخول في الإسلام؛ ولكن هيهات؛ ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

٤٥٨. تفيد كشف أعداء الإسلام الذين لم يستطيعوا المجادلة بالحقِّ نظراً لوضوح الآيات وبيانها ولكنهم استكبروا ونزعوا لأساليب المواجهة غير الموضوعية بحيل الدفاع النفسي المتمثلة في

الاستعلاء التوهمي وتبسيط القرآن وأنَّهم يستطيعون أن يأتوا بأفضل منه. فهذه حال المضطرب نفسيا والمستكبر بالوهم والمستعلي على الحق بزعمه أنه يستطيع أن يأتي بأفضل منه.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢]

٤٥٩. تفيد أنَّ المشركين يعرفون الله تعالى بل ويدعونه، لكنهم أشركوا به في الدعاء فكانوا يدعون الأصنام والأنداد والصالحين كاللات.

٤٦٠. فيها رد على من يقول: إنَّ الشرك هو اعتقاد وجود خالق مع الله وهؤلاء من المشركين كانوا يؤمنون بأنَّ الله هو الخالق كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ ؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ قال ابن عباس ب: إيمانهم بالله أنهم إذا سئلوا: من خلقكم من رزقكم؟ قالوا: الله، وهم مشركون.

٤٦١. فيها دلالة قاطعه على سفاهة عقول المشركين وحمقهم فبدلاً من أن يسألوا الله الهداية للحقِّ يدعون على أنفسهم ويستعجلون العذاب الأليم إذا كان ما جاء به النبي ﷺ هو الحقّ. والجادة أن يسألوا الهداية إليه إن كان هو الحقّ. وهذا من شدة ضلالهم عياذًا بالله. وكذلك لأنَّ الشيطان استحوذ على عقولهم وقلوبهم فضلُّوا وزاغوا وانحرفوا حتى في الدعاء.

٤٦٢. يفيد شدة تكذيبهم للحقِّ فلو صدُّقوا به مثقال ذرة ما دعوا على أنفسهم ألم تر أنَّ وفد نصارى نجران لما دعاهم النبي ﷺ إلى المباهلة رفضوا لعلمهم في أنفسهم أنَّه على حقٍّ. وهذا يوافق قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ ..

٤٦٣. تشير: التحرّي عند الدعاء؛فالأمر عظيم؛ إنَّها مناجاة الله الملك الحقّ.

٤٦٤. تفيد: أنَّهم على علم، بأنَّ الله قد عذَّب أمماً أو أمَّة بحجارة من السماء.

٤٦٥. تفيد: أنَّ القوم مقتنعين بباطلهم.

٤٦٦. فيها أنَّ الشرك يضعف العقل فإنَّه لا يمكن أن يدعو عاقل بهذا الدعاء.

٤٦٧. تفيد: ما كان عليه أولئك القوم من العناد وهو الذي دعاهم في أن تأخذهم العزة بالإثم.

٤٦٨. تفيد أن الحقَّ إنّما يكون من عند الله.

٤٦٩. ما يفعله بعض الجهلة اليوم من صـــورٍ مماثلة لهذا التحدّي والجرأة على الله وردّ الحقّ له نظير ممن سبق ومثيل.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]

٤٧٠. تفيد مع ما قبلها أنَّ الله ﷻ قد يمنع عقوبته وعذابه عن المستحقين لها بسبب وجود بعض أولياء الله الصـــالحين فيهم؛ وإنَّ مجرَّد التآمر والتخطيط على إخراجهم أو التخلُّص منهم مؤذن بقرب عقوبة الله تعالى على أهل تلك البلدة.

٤٧١. فيها: عظيم مكانة الرســـول ﷺ وأنَّ وجوده بين الناس أمان لهم من وقوع العذاب.قال حبر الأمَّة عبد الله بن عباس: كان فيهم أمانان النبي ﷺ والاســـتغفار فذهب النبي ﷺ وبقي الاستغفار.

٤٧٢. فيها: كريم رحمته - وعظيم حلمه فلم يأخذ القوم بعنادهم واستكبارهم.

٤٧٣. تفيد حلم الله -، بالترابط والسياق المتناسق مع الآية السابقة فرغم سؤالهم الله أن يمطر عليهم حجارة من السماء إلَّا أنَّ الحليم الكريم لم يؤاخذهم مع كفرهم واستكبارهم بسبب استغفارهم ووجود الرسول ﷺ بينهم.

٤٧٤. تفيد أنَّ الإنسان قد يستعجل العقوبة والله أرحم به من نفسه؛ قال تعالى:﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾.

٤٧٥. تفيد بإشـــارة لطيفة ودقيقة أنَّ من أُشـــرِب في قلبه ووجدانه حبّ النبي ﷺ؛ - والحبيب لمن يحب مطيع ومكثر من ذكره- فإنَّ الله عز وجل بفضـــله وكرمه يؤمّنه عذاب الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ ولعلَّ العدول عن قوله: (وأنت بينهم) أو (وأنت عندهم) مثلا إلى قوله: ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ إشارة لطيفة إلى ما تقدم؛ وقد قال عليه الصلاة والسلام:

(المرء مع من أحب). وقال ﷺ لأُبي بن كعب حين قال له: اجعل لك صـــلاتي كلها: (إذن يكفى همك ويغفر ذنبك).

٤٧٦. تفيد التحريض والحث على الاســـتغفار؛ فإن كان الله عز وجل يمنع عذابه عن الكافر بسبب استغفاره؛ فما ظنكم بالمؤمن الموحِّد؟

٤٧٧. تفيد أنَّ الله ﷻ قد يجازي الكافر على أعماله الصـــالحة وأفعاله الإحســـانية – وإن لم تكن غير مقبولة عنده–؛ في الدنيا فقط إمَّا من خلال وفرة الرزق وســـعته وإمَّا برفع العذاب أو تخفيفه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾؛ وأمَّا في الآخرة فقد قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾. وإنَّما قلت (غير مقبولة عنده) وذلك لأنَّ الإيمان شرط لقبول العمل.

٤٧٨. تفيد أنَّه من باب أولى أنَّ استغفار الفُسَّاق والفجَّار وأصحاب الكبائر من المسلمين قد يدفع الله عنهم بسبب استغفارهم الشرور والأضرار والعقوبة الأليمة.

٤٧٩. في الآية دعوة للرجوع إليه بالتوبة والإقلاع عن الذنب والاســـتغفار، فإنَّ الله يحبُّ الخطَّائين، التوَّابين، ويقبل توبة العبد ويفرح به ما لم يغرغر.

٤٨٠. فيها الأمر بالاســـتغفار والإكثار منه والاســـتمرار عليه؛ لقوله: ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ بصـــيغة المضارع التي تفيد الاستمرار، وكان النبي ﷺ يقول: " يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإنِّي أتوب إليه في اليوم مائة مرة". رواه مســـلم. وقال ﷺ: "طوبى لمن وجد في صـــحيفته اســـتغفارا كثيرا". السلسلة الصحيحة.

٤٨١. فيها: الترغيب في الاستغفار حيث بين أنه يمنع من عذابه عز وجل.

قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]

٤٨٢. من التناسب أنَّ الآية السابقة أفادت بعض موانع وقوع العذاب وأفادت هذه الآية بعض موجبات العذاب واستحقاقه وهو الصدّ عن المسجد الحرام.

٤٨٣. تفيد: أنَّ لعذاب الله موجبات.

٤٨٤. صدُّ الناس عن المسجد الحرام من أقوى الأسباب في استجلاب العذاب.

٤٨٥. فيها: أنَّ ولاية الله، والتعبُّد لله بتمكين الناس من المسجد الحرام وحضّهم على ذلك، سببان في النَّجاة من العذاب؛ لأنَّه نصَّ على عذابهم لأمرين: الأول: أنَّهم ﴿يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾. والثاني: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾. وعليه: ففيها تلميح، بأنَّه ليس الشأن كل الشأن في مسألة المسجد الحرام فحسب، ولكن الشأن في الإيمان بالله الذي تكون به الولاية؛ ولذا نبَّه قائلا: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾؛ وتصديقه: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[التوبة: ١٩].

٤٨٦. تفيد الآية أنَّ ولاية المسجد الحرام إنَّما هي للمؤمنين لا للمشركين كما قال تعالى ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ...﴾ وقوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ...﴾ فهؤلاء هم أولياؤه حقًّا وصدقاً لا ادعاء وهذا على اعتبار أنَّ الضمير في ﴿أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ على المسجد الحرام، قال البغوي :﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ قَالَ الْحَسَنُ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاءُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: "وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ" أَيْ: أَوْلِيَاءَ الْبَيْتِ، ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ﴾ أَيْ: لَيْسَ أَوْلِيَاءُ الْبَيْتِ، ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ يَعْنِي: الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَتَّقُونَ الشِّرْكَ، قال أبو السعود : وما أشَرْنا إلَيْهِ مِن رُجُوعِ الضَّمِيرَيْنِ إلى المَسْجِدِ هو المُتَبادَرُ المَرْوِيُّ عَنْ أبِي جَعْفَرٍ.

٤٨٧. فيها: تلميح بادعاء وافتراء المشركين على الله، الذين يزعمون أنَّهم أهل الله وأهل الحرم؛ فردَّت الآية عليهم. ونحوه قول الله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة:١٨].

٤٨٨. فيها التحذير من استخدام السلطة في الباطل، وكل ما هو داخل في الصدِّ عن سبيل الله.

٤٨٩. تفيد: أنَّ التعبُّد لله بتمكين الناس من المسجد الحرام، وتيسير أمورهم إليه من تقوى الله، وسبب في ولاية الله.

٤٩٠. فيها: مجيء ﴿إِنْ﴾، بمعنى: "ما"؛ لقوله: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾، أي: ما أولياؤه إلا المتقون. ونظيره: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾، أي: ما هم إلا يظنون. قال الزجاج في معاني القرآن: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾. المعنى: ما أولياؤُهُ إلا المتقون.

٤٩١. فيها: أنَّ تقوى الله منجاة من العذاب.

٤٩٢. فيها أنَّ كلَّ من قام على الأعمال من سقيا الماء وبناء المساجد وما يعرف بالأعمال التطوعية المختلفة ليس بشيء إن لم تصحبه التقوى.

٤٩٣. تفيد: أنَّ التقوى سبب الولاية؛ وبهذا ينكشف كل دعي؛ قال الله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾[يونس: ٦٢-٦٣].

٤٩٤. في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بيان الدقَّة في الأحكام وعدم التعميم فيها إلا بدليل.

٤٩٥. تفيد أنَّ الجهل بالله وبدينه من أسباب الصدِّ عن سبيل الله تعالى وشرعه؛ لقوله:﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قال تعالى:﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٥]

٤٩٦. مناسبتها لموضوع السورة: قال شيخ الإسلام ابن تيمية: قد يكون العذاب من عنده، وقد يكون بأيدي العباد، فإذا ترك الناس الجهاد في سبيل الله فقد يبتليهم بأن يوقع بينهم العداوة حتى تقع بينهم الفتنة كما هو الواقع؛ فإنَّ الناس إذا اشتغلوا بالجهاد في سبيل الله جمع الله قلوبهم

وألَّف بينهم وجعل بأســـهم على عدو الله وعدوهم وإذا لم ينفروا في ســـبيل الله عذَّبهم الله بأن يلبسهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض. (مجموع الفتاوى ٤٤/٥)

٤٩٧. فيها: بيان ما كان عليه أولئك القوم من الجهل والضَّـلال حيث جعلوا أعظم العبادات تصفيقاً وتصفيراً.

٤٩٨. فيها: مناسبة دقيقة لما قبلها؛ فإنَّ من صدَّ عن شعائر الله، استبدلها باللهو والباطل. وفي هذا بيان أنَّ المخالفة تجرُّ أختها.

٤٩٩. فيها: المناسبة: بعد أن بيَّن سبحانه أنَّهم لم يكونوا أولياء البيت الحرام، بيَّن السبب هنا وهو أنَّ تقرَّبهم وعبادتهم كانت بالصفير والتصفيق.

٥٠٠. فيها: بيان أنَّ من استهزأ بشعائر الله ﷻ أن يذيقه الله ﷻ العذاب الأليم.

٥٠١. فيها تنزيه الإســـلام عن الحركات المخلة بالمروءة كالتصـــفيق والتصـــفير من غير حاجة. وهذا دليل على بطلان المذاهب والطرق القائمة على الأهازيج واللطم وما شـابهها مما لم يشـرعه الله.

٥٠٢. وجوب تعظيم المسجد الحرام من المكاء والتصدية، ومن الأفعال القبيحة الشنيعة.

٥٠٣. ســـنة الله تعالى لا تتبدَّل ولا تتغير، فالعقوبة والعذاب حالٌّ ونازلٌ وواقعٌ بالمخالفين المستهزئين.

٥٠٤. فيها تأكيد على أنَّ أولى الناس ببيت الله الذين يعظِّمون شعائر الله، ويقصدونه بما شرع الله.

٥٠٥. تهدي الآية الكريمة إلى أنَّ مقارنة عبادة أهل الإسلام بعبادة غيرهم من أتباع الأديان من وسـائل إبراز فضـل الإسـلام وأهله على سـائر الأديان وأتباعها. ويمكن في هذا المجال فتح آفاق بحثية للمقارنة بين عبادات المسلمين وعبادات غيرهم في مظاهرها وحقائقها للوصول إلى النتيجة

المدعومة بالأدِّلة. ولا يبعد حمل الآية على القولين جميعا؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فبيَّن سبحانه أنَّ المشركين ليسوا أولياؤه ولا أولياء بيته، إنَّما أولياؤه المتقون. (مجموع الفتاوى ١١/١٦٤)

٥٠٦. فيها تعظيم المسجد الحرام؛ لقوله: ﴿ٱلۡبَيۡتَ﴾ فهو البيت عند الإطلاق، وقال تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾ فبها يقوم دينهم ودنياهم.

٥٠٧. فيها ذم النصارى ومن تشبَّه بهم من المتصوفة وغيرهم الذين جعلوا صلاتهم ترانيم وأناشيد ومزامير وتصدية فاتَّخذوا دينهم لهواً ولعباً.

٥٠٨. فيها أنَّ الكفر والشرك هو سبب العذاب في الدنيا والآخرة.

٥٠٩. تفيد فضل الصلاة عند البيت، التي لا يعرف قدرها إلا أهل الإيمان والتقوى.

٥١٠. تفيد أنَّ العذاب يقع ويتحقق بأسبابه والتي من أعظمها الكفر بالله.

٥١١. تفيد خطورة تبديل الدين وتغيُّر صور العبادات التي شرعها الله تعالى.

٥١٢. تفيد ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ بِأَنَّ هَذا الفِعْلَ المُطْلَقَ لِحُرْمَةِ البَيْتِ كُفْرٌ، لِلِاسْتِهانَةِ بِشَعائِرِهِ تَعالى والسُّخْرِيَةِ بِها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]

٥١٣. تفيد مناسبة ظاهرة لأحداث غزوة بدر التي ذكرت في بداية السورة؛ وإعجازا غيبيا لما حدث عقب هذه الغزوة؛ حيث إنَّ الأموال التي أحرزها أبو سفيان من العير التي كانت جميع أموال كفار قريش فيها؛ أنفقوها بعد ذلك في غزوة أحد لمحاربة وغزو المسلمين والصدّ عن سبيل الله؛ وقد أخبر - بإنفاقهم بحرف السين التي تدل على التعقيب؛ وأخبر بحسرتهم بـ ﴿ثُمَّ﴾ التي هي للتراخي؛ وقد ظهرت حسرتهم بعد ذلك من الغزوات عدا غزوة أحد التي -نوعا ما- انتصروا فيها على المسلمين.

٥١٤. تفيد قبح ما كان عليه الكفار فبعد ما ذكر الله ـــــ عبادتهم البدنية، وهي المكاء والتصدية.. ذكر عقبها عبادتهم المالية التي لا جدوى لها في الآخرة.

٥١٥. فيها أنَّ هؤلاء المجرمين من الكفار ينفقون أموالهم ويبذلوا الوسع والطاقة ويبلغ جهدهم مبلغه في محاربة التوحيد وأهله... وهي قضية سننيه كبرى، كانت وستكون الى قيام الساعة.

٥١٦. فيها عدم تبصر الكافرين بسنن الهالكين؛ ﴿يُنفِقُونَ﴾ مضارع يفيد التكرار؛ فهم يرون من ينفق ثم ينقلب خاسرا فلا يرعوي.

٥١٧. فيه كرم الله إذ رزق الكافر المال.

٥١٨. ﴿يُنفِقُونَ﴾ ﴿يُنفِقُونَهَا﴾ ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾ ألفاظ تدل على الجمع والتعدد؛ بينما سبيل الله مفرد؛ فيحتمل دلالتها على إنفاق الكفار أموالهم في أكثر من جهة.. وكلها تصب في قصد واحد (الصد عن سبيل الله).

٥١٩. تفيد أنَّ الكفار لا ينفقون أموالهم إلا لهدف محدد عبر التاريخ وهو الصدّ عن سبيل الله وإن قدم ذلك في شكل معونات ومساعدات، يا ليت الأمَّة تدرك ذلك وتعتمد بعد الله على مواردها وإنتاجها.

٥٢٠. في التعبير بالمضارع في ﴿يُنفِقُونَ﴾ دلالة على عمى قلوبهم وانتكاس فِطَرهم؛ فلا يرعوون ولا يتوبون؛ بل يجددون الصدَّ حينا بعد حين.

٥٢١. ﴿لِيَصُدُّواْ﴾ لام التعليل هنا تفيد أنَّ هذه العلة، هي علة نفسية تلازم نفوسهم كلما رأوا أهل الحقِّ واجتماعهم لنصرة دين الله اغتاظوا لذلك، وأنفقوا أموالهم من أجل صدهم عن دينهم.

٥٢٢. الصدُّ عن دين الله في أرضه من قبل الكفار بشتى مللهم ونحلهم هي سنة كونية وهي قدر أهل الحقِّ أن يحاربوا.

٥٢٣. دلَّت على أنَّ إنفاق الكافرين أموالهم انصرف إلى صدِّ الإسلام.. وليس إلى الدعوة لدينهم.. وهذا من صالح أهل الإسلام.

٥٢٤. دلَّ على أنَّ تضـــييع مال الكافرين متوعَّد به من ينفق ماله للصـــدِّ.. فإن لم يفعل فلا يكن ماله عليه حسرة.. إنَّما حجَّة.. وفرق بين الحجَّة والحسرة.

٥٢٥. فيها: علم الله بالغيب عامة، وما ســيقع وســيكون من أفعال العباد خاصــة؛ لقوله: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾. وأما كونه – سبحانه – يعلم ما يكون من أفعالهم، قوله: ﴿يُنفِقُونَ﴾.

٥٢٦. السين في قوله ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ تفيد أمرين:

– التأكيد.. وهي تتحد مع حرف التوكيد ﴿إِنَّ﴾.

– قرب ضياع أموالهم.. وفي هذا بشارة.. فلم يقل: (فسوف ينفقونها).

٥٢٧. هذه الآية من أعظم ما يبث الفأل في قلوب الدعاة والمصــلحين بأنَّ جهود الصــدِّ عن سبيل الله وما ينفق عليها من أموال عاقبتها الحسرة والبوار مهما عظمت وكثرت.

٥٢٨. في الآية الخبر اليقين عن حسرة وخيبة من أنفق ماله –وكذا جهده– في مساخط الله.

٥٢٩. فيها التأكيد بثلاث عقوبات عاجلة في الدنيا والرابعة في الآخرة للذين ينفقون أموالهم للصد عن سبيل الله:

– نفاق المال بعد إنفاقه

– الحسرة التي تعقب ذلك. في قوله: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ .

– ثم يغلبون وهذه العقوبة قد تتأخَّر؛ فلا تجزعوا يا أهل الحقِّ لتأخّرها؛ فإنَّها كائنة لا محالة.

٥٣٠. ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ تدلُّ على أنَّ أهل الباطل أصــحاب خطط طويلة ومتنوعة في جميع المجالات: الإعلامية والاقتصادية والفكرية والعسكرية، وقد يطول زمن الإنفاق والبلاء على المؤمنين ليطول بهم زمن الحسرة والندامة.

٥٣١. قوله تعالى: "حسرة" في غاية المناسبة لحالهم؛ إذ فيها تقرير ما يُلِمُّ بهم من عقاب نفسي عاصـف؛ فقد أنفقوا –وقت السـعة– عزيزا على قلوبهم، فوجدوه –وقت الضـيق– نكالاً ووبالاً عليهم.

٥٣٢. تحسُّرُ الأعداء عذاب قبل هزيمتهم.. ولهذا أتى بـ ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ للتراخي.

٥٣٣. لما كان المال مال الله؛ أبى الله إلَّا أن يذهبه من يد أعدائه فإن لم يكن بغنيمة المؤمنين له فبالمشاريع الفاشلة.. فإن لم يأت المؤمنين خيره فقد كفاهم الله شره..

٥٣٤. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ التي تفيد استعلاء الحسرة وتمكُّنها من قلوبهم.. بحيث لا يبقى للفرح فيه مدخل.

٥٣٥. دلَّت على أنَّ الأثر النفسي يلعب دورا هاما في المعركة.. فـ﴿يُغْلَبُونَ﴾ جاءت بعد ﴿عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾.

٥٣٦. حسرتهم من قبيل المال لشدَّة تعلُّق النفوس فيها؛ وجاءت الحسرة في الآية مقترنة بإنفاق المال.. أمَّا الغلبة فلم تتعلق بالمال.

٥٣٧. عوقبوا بالحسرة دون غيرها من العقوبات لأنَّ للمال فرحاً في النفس فكان العقاب بنقيض لذتهم.

٥٣٨. فيها أنَّ العبرة في المآلات وهي انتصار أهل الحقِّ وأهل التوحيد. والتاريخ الآن يعيد نفسه في زماننا هذا وهو زمن غربه الموحدين من أهل السنة والجماعة فقد تكالبت عليهم قوى الكفر والطغيان في كل أصقاع الدنيا يهود ونصاري ومجوس وبوذيين وهندوس و(منافقين) فكلهم ينفق وبكلِّ ما عندهم من عدَّة وعتاد ومال وإعلام لكي يطفئوا نور الله. والله غالب على أمره ولكنَّ أكثر الكفار لا يعلمون.

٥٣٩. فيها تربية للمؤمن على الانتظار وعدم الاستعجال.. ولهذا تكررت ﴿ثُمَّ﴾ مرَّتين في الآية.

٥٤٠. تدلُّ كلمة ﴿يُغْلَبُونَ﴾ على ضرورة مواجهة أعداء الإسلام مواجهة حقيقية لمقاومة جهدهم في حربه إلى أن تتم الغلبة عليهم.

٥٤١. يفيد بضرورة مراقبة نشاط الأعداء ومنازلتهم بالوسائل الشرعية والاستمرارية في تلك المنازلة إلى أن تتم الغلبة عليهم. وهذا ما يرتبط بالمحور الرئيس في السورة وضرورة بناء المسلمين بناء داخليا وتسليحهم بالإيمان وبناءهم خارجيا باستكمال عدَّتهم لتحقيق تلك الغلبة.

٥٤٢. تفيد: أنَّ دين الله ماضٍ إلى يوم القيامة؛ مهما فعل أهل الكفر وتنوَّعت طرق صدِّهم؛ قال الله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[التوبة: ٣٢] وما في معناها كثير. ففيها: بشارة وطمأنينة لأهل الإسلام؛ لأنَّ الله تولَّى حفظ هذا الدين.

٥٤٣. فيها: الجمع بين الجزاء الدنيوي والأخروي لهؤلاء الصادِّين عن دين الله؛ لقوله: ﴿يُغْلَبُونَ﴾ وفيه من الخزي ما فيه. ثم مآلهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾؛ وتصديقه: ﴿فَأَذَٰقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[الزمر: ٢٦].

٥٤٤. فيها ما يدلُّ على صدق القرآن الكريم؛ وعلى صدق رسالة النبي ﷺ حيث وقع ما ذكره الحقّ تعالى من وقوع الحسرة والغلبة بإذن الله يحشرهم الي جهنم.

٥٤٥. للمسلمين في هذه الآية عبرة وعظة فلينفقوا أموالهم في سبيل الله كما أنفق أسلافهم فيها، لأنَّ لهم بها سعادة الدارين، والكفار في هذا العصر ينفقون الكثير من الأموال للصدِّ عن الإسلام، وفتنة الضعفاء من العامَّة بالدعوة إلى دينهم، وتعليم أولاد المسلمين في مدارسهم، ومعالجة رجالهم ونسائهم في مستشفياتهم إلى نحو ذلك من الوسائل الناجعة في نشر دينهم، وفتنة المسلمين عن دينهم، وهم لا يبالون ماذا يفعلون، ألا ساء ما يعملون. (المراغي)

٥٤٦. فيها عناية الله بعبادة وأوليائه حيث فضح لهم مخططات الكفرة وبيَّن أنَّهم على الدوام مستعدون للصدِّ عن دين الله ببزل أموالهم.

٥٤٧. فيها تثبيت للمؤمنين وتطمين لقلوبهم لما راوا حدوث ذلك والنصر على الكافرين رغم كثرة عدَّتهم وعتادهم.

٥٤٨. تفيد أنَّ الكفار يعلمون سبيل الحقِّ وخطورته عليه،م ولهذا هم يعملون لما يصرِف الناس عنه.

٥٤٩. تفيد أنَّ من أعظم الخسران ضياع المال دون تحقيق الهدف الذي أنفق فيه.

٥٥٠. فيها إثبات النار وأنَّ من أسمائها جهنم وهو من الأسماء التي لها دلالاتها في الترهيب والتخويف.

٥٥١. فيها إثبات الحشر إلى النار؛ ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

٥٥٢. تفيد أنَّ من أعظم الخسارة أن يجتمع على المرء الخسارة المادية والمعنوية؛ حيث يخسر ماله وتضيع جهوده وتنزل عليه الهزيمة؛ فخسر العير وخسر النفير.

قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧]

٥٥٣. فيها أنَّ تمييز الخبيث من الطيب من فضل الله عز وجل على الناس ومن عدله، وقال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِ﴾.

٥٥٤. فيها: أنَّه ليس ثمة ميزان أدقّ وأعظم من ميزان الله، فمتى عده الله خبيثا، فليس له رفعة بعدُ دون الله.

٥٥٥. فيها: أنَّ تميز العبد الطيب من العبد الخبيث من أعظم الفوز.

٥٥٦. تقديم الخبيث على الطيب يشير إلى كثرتهم ويدلُّ على ذلك قوله تعالى ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِ﴾ فيها أنَّ العبد لن يبلغ الطيب ما لم يميز.

٥٥٧. فيها بيان بعض حكم الله تعالى في ابتلاءات المؤمنين وفتنتهم.

٥٥٨. فيها: عدل الله؛ وكما قال: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]. وتصديقه: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ

ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾[آل عمران: ١٧٩].

٥٥٩. فيها بيان أنَّ كلَّ ما يصـــدر من الكافر فهو خبيث، فعمله خبيث، وانفاقه خبيث في سبيل الشيطان أمَّا المؤمن فعمله طيب وانفاقه طيب في سبيل الله ﷻ.

٥٦٠. فيها: بيان أنَّ جهنم دار الخبث والخبثاء أجارنا الله جميعا منها.

٥٦١. فيها أنَّ الخسـران كل الخسـران أن تخسـر الآخرة بأن يكون المآل إلى نار جهنم والعياذ بالله لأنَّ الجزاء من جنس العمل.

٥٦٢. تفيد: أنَّ أهل الخبث لا يصدر منهم إلا الخبيث، والعكس؛ لقوله: ﴿وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا﴾؛ وتصديقه: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾[النور: ٢٦].

٥٦٣. ﴿جَمِيعٗا﴾ دلَّت على تعدد أصـــناف الخبيث.. ولم يذكر ذلك في الطيّب لكونه صـــنفا واحدا.

٥٦٤. فيها أنَّ في التعبير بقوله ﴿فَيَرۡكُمَهُۥ﴾ يدلُّ على حقارة الخبيث وأهله حيث يقذف به في النار دون عناية واعتبار.

قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٨]

٥٦٥. فيها بيان سعة رحمة الله تعالى حيث فتح باب التوبة للكافرين فغيرهم من باب أولى.

٥٦٦. فيها أنَّ التوبة تجبُّ ما قبلها كما جاء بيان ذلك في السنة النبوية.

٥٦٧. تفيد أهمية مراعاة مشاعر الآخرين؛ حيث أغفلت وأبهمت هذه الآية ذكر القوي ـــ في هذه الواقعة؛ مراعاة لمشـاعر الأسـرى والمعتقلين؛ وتحسـين الخطاب الدعوي في حقِّهم؛ فلم يقل مثلا: (نغفر لهم) ولا أيضا (فقد مضت سنتي أو سنة الله في الأولين). كما أنَّه مراعاة للمشاعر النفسية لهؤلاء الكفار الأسرى جاءت جزء من هذه الآية على وزن من أوزانهم الشعرية المتعارفة

بينهم تأليفا لقلوبهم وإدخال السرور عليهم. ذكر السيوطي في الإتقان أبيات شعر لأحد العلماء في هذا السياق؛ حيث يقول:

يا مـن عـدا ثم اعتـدى ثم اقـترف ثم انتهـى ثم ارعـوى ثم اعـترف
أبشـر بقـول الله في آياتـه إن ينتهـوا يغفـر لهـم مـا قـد سـلف

٥٦٨. فضيلة التوبة في الإسلام، وأنَّ لها فضيلة عظيمة، ومرغب فيها، فهي تختلف عن توبة الأمم السابقة، والقرون السالفة، فلا تحتاج إلى تكليف أو تعقيد.

٥٦٩. فيها أنَّ من أساليب الدعوة النافعة الجمع بين الوعد والوعيد والترغيب والترهيب.

٥٧٠. فيها: كريم لطف الله عز وجل وواسع رحمته وجميل فضله لفتح باب التوبة للكافرين.

٥٧١. فيها: بيان عدل الله عز وجل في أخذه للظالمين بعد أن أمهلهم وأنذرهم.

٥٧٢. أمر الله تعالى لنبيه بمخاطبة الكافرين بما ذكر بقوله سبحانه ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ وهذا يلزم منه المواجهة والمباشرة كما هو ظاهر من لازم التبليغ.. والله اعلم.

٥٧٣. فيها أهمية أخذ العبرة بما سبق من سنة الله في المؤمنين وفي الكافرين، حيث إنَّ العاقل هو الذي يعتبر بذلك فيقوده الاعتبار إلى الانضمام إلى الحقِّ وأهله ومجانبة الباطل وأهله.

٥٧٤. فيها أنَّ السعيد من اتعظ بغيره.

٥٧٥. تفيد أهمية استمرار الدعوة الإسلامية وتحسين الخطاب الدعوي في أوساط الأسرى والمعتقلين؛ بما يتناسب ويتواءم مع أوضاعهم النفسية وتوجُّهاتهم المستقبلية.

٥٧٦. تفيد أنَّ الإسلام بتعاليمه الراقية والسمحة هو أول من وضع قوانين حقوق الأسرى والمعتقلين؛ وحمايتهم من جميع أصناف الأذى والتعذيب.

٥٧٧. تفيد أنَّ الشعوب الإسلامية تتنازل عن حقِّها في معاقبة الأسرى والمعتقلين وعموم الكفار – مهما عملوا في حقِّها من أعمال- لوجه الله تعالى بمجرد أن يسلم الكافر؛ أو يتعهد

بالكفِّ عن الاستمرار في مهاجمة الدعوة الإسلامية؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ ولم يقل: (إن يسلموا يغفر لهم).

٥٧٨. فيها: أنَّ سُنَّة الله في إهلاك أعدائه ماضية لا تتبدَّل ولا تتغيَّر؛ وكما قال: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [آل عمران: ١١]. وفي هذا طمأنينة للمؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [الأنفال: ٣٩]

٥٧٩. في الآية أنَّ من الفتن ما لا يدفعه عن الأمَّة إلا الجهاد.

٥٨٠. ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ﴾ خطاب للجميع ففيه وجوب اجتماع المؤمنين والنهي عن افتراقهم.

٥٨١. ﴿تَكُونَ﴾ مضارع يفيد الاستمرار والتجدد.. وهذا يوجب الحذر من فتنة الكافرين وشركهم لتجددها.

٥٨٢. تسمية الشرك فتنة لأنَّ الشرك فتنة للتابع والمتبوع.. والفتن كذلك.

٥٨٣. فيها: الحث على إعداد القوة للعدو.

٥٨٤. تفيد أنَّ الإسلام دين سلم وليس دين حرب، فمن سالم سلم ومن قاتل قوتل.

٥٨٥. تفيد وجوب محاربة ومكافحة جميع أشكال الفتن التي تواجه الدعوة الإسلامية، وعلى رأسها صد الناس عن اعتناق الدين الإسلامي، والدعوة إلى الشرك والإلحاد، وبث الشبهات، ونشر البدع والخرافات.

٥٨٦. في قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ فائدة دعوية وتربوية وهي أنَّ تحديد غايات الأحكام أو بيان عللها دافع إلى الامتثال وداع إلى سرعة الاستجابة.

٥٨٧. إثبات جهاد الغزو في حال قوة المسلمين، والرد على من ادعى أنَّ الجهاد في الإسلام جهاد دفع فقط.

٥٨٨. مشروعية ارتكاب أخفِّ المفسدتين لدفع أعلاهما، فالقتال فيه مفسدة دنيوية بالقتل والجراح والأسر والتخريب والتهجير، ولكن هذه المفاسد تغتفر لدفع المفسدة العظمى وهي فتنة الناس بالكفر كمل قال تعالى: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ﴾.

٥٨٩. وجوب الاجتهاد في إظهار دين الله ونصرته على جميع الأديان الباطلة.

٥٩٠. قال ابن عاشور في التحرير والتنوير: وهَذِهِ الآيَةُ دالَّةٌ عَلى ما ذَهَبَ إلَيْهِ جُمْهُورُ عُلَماءِ الأُمَّةِ مِن أنَّ قِتالَ المشْرِكِينَ واجِبٌ حَتّى يُسْلِمُوا، وأنَّهم لا تُقْبَلُ مِنهُمُ الجِزْيَةُ.

٥٩١. تفيد بيان مقصود الجهاد في الإسلام، وهو إعلاء دين الله تعالى وشرعه.

٥٩٢. تفيد غاية الإيمان: الخضوع لله ﴿ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ .

٥٩٣. تفيد أنَّ المقصد والغاية من مشروعية الجهاد في سبيل الله من أسمى وأنبل وأرقى المقاصد والغايات، إذ هي ليست أطماعا اقتصادية ولا توسُّعات سياسية استعبادية واستبدادية في حقِّ البشرية، ولا غير ذلك من الأطماع الأرضية، بل المقصد والغاية هو ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾.

٥٩٤. في قوله تعالى: ﴿ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ﴾ إشارة إلى أنَّ الدين كلٌّ لا يتجزأ لا في قضايا الإيمان ولا في قضايا حسن القصد بالنيَّة الخالصة لله ولا في قضايا صحة العمل بحسن الاتباع وفي هذا كله صلاح الأفراد والمجتمعات.

٥٩٥. فائدة في التفريق بين المتشابهات: لما كانت غزوة بدر التي تحدثت عنها هذه السورة فتح الفتوح وبداية الانتصارات العظمى في تاريخ الإسلام؛ والانطلاق به نحو العالمية؛ ناسب أن تأتي عبارة ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ حثًّا وترغيباً لأتباعه على تحمُّل مسؤولياتهم للانطلاق بدينهم نحو العالمية؛ ليكون الدين الأول والأقوى في العالم. بخلاف موضع سورة البقرة حيث جاءت العبارة ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ وذلك لورودها في سياق ابتداء مشروعية الجهاد والقتال في سبيل الله تعالى.

٥٩٦. فيها إثبات صفة البصر لله ـ.

٥٩٧. وفيها: قوله﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ كناية عن حسن مجازاتهم، وهذا من عدل الله ﷻ.

٥٩٨. تفيد أنَّ أعمال الجهاد والقتال في سبيل الله يجب أن تبنى على ظواهر الأحوال؛ والله يتولَّى السرائر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾. وعليه؛ فإنَّه يجب على المجاهد أن يمسك سيفه عن الكافر المحارب إذا نطق بشهادة التوحيد حتى ولو قالها خوفاً من السلاح والقتل؛ ويشهد لهذا حديث أسامة بن زيد ﷺ.

٥٩٩. تفيد كمال علمه ودقة حسابه جل وعلا، قال (البقاعي): ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ أيْ: وإنْ دَقَّ، ﴿بَصِيرٞ﴾ فَيُجازِيهِمْ عَلَيْهِ، وأمّا أنْتُمْ فَلَسْتُمْ عالِمِينَ بِالظّاهِرِ والباطِنِ مَعًا فَعَلَيْكم قَبُولُ الظّاهِرِ، واللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ أنْتُمْ أيْضًا -مِن كَفٍّ عَنْهم وقَتْلٍ لِلَّهِ أوْ لِحَظِّ نَفْسٍ- بَصِيرٌ، فَيُجازِيكم عَلى حَقائِقِ الأُمُورِ وبَواطِنِها وإنْ أظْهَرْتُمْ لِلنّاسِ ما يُقِيمُ عُذْرَكُمْ، ويُكْمِلُ لِكُلٍّ مِنكم أجْرَ ما كانَ عَزَمَ عَلى مُباشَرَتِهِ مِن قِتالِهِمْ لَوْ لَمْ يَنْتَهُوا.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠]

٦٠٠. ولاية الله - أعظم ولاية للموحدين وأفضل النعم التي يجب أن يستشعرها المؤمنين.

٦٠١. فيها أنَّ الولاية للمؤمنين متلازمة مع نصرته لهم.

٦٠٢. فيها التحذير من التولِّي والإعراض.

٦٠٣. فيها الحثّ على العلم بالله ﷻ وصفاته وأسباب ولايته لعباده والعمل بذلك؛ لقوله: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾.

٦٠٤. افتتاح جملة جواب الشرط بـ ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ لقصد الاهتمام بهذا الخبر وتحقيقه، أي لا تغفلوا عن ذلك، كما مرَّ آنفاً عند قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ تأكيد بقوله تعالى ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ...﴾ على نفي ما قد يرد مما سبق ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ و﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ من أنَّ الدين بحاجة لهم أو لإسلامهم أو مسيرته متوقفة على دخولهم فيه أو توقُّفهم عن مناصبته العداء. فختم تعالى بالتأكيد على نفي ذلك فإنَّما الولاية الحقيقية والنصر الحقيقي بالله ومن الله وحده لا بزيادة العدد بإسلام عدوه.

٦٠٥. فيها أنَّ قوله تعالى: ﴿وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ في ختام الآية تسليه للمؤمنين وتعضيدا لهم مما يرفع من وتيرة الإيمان في نفوسهم ويزداد رسوخا وعزَّه واستعلاء ورفعة وهذا مطلب مهم في نشر الدعوة.

قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١]

٦٠٦. الأربعون آية قبل هذه الآية كلها في تربية الصحابة ثم جاءت هذه الآية جواب لسؤالهم عن الأنفال في بداية السورة، فالتربية قبل التعليم ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ صدق الله

٦٠٧. فيها: أنَّ الجهاد باب من أبواب الرزق – بل من أعظم وأوسع الأبواب.

٦٠٨. تفيد: أنَّه لا يحلُّ أخذ شيء قط من المغانم – وإن دقَّ، قبل قسمتها؛ دلَّ عليه التنكير في قوله: ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾. وفي البخاري مرفوعاً: «بل، والذي نفسي بيده، إنَّ الشملة التي أصابها يوم خيبر من المغانم، لم تصبها المقاسم، لتشتعل عليه نارا».

٦٠٩. إحلال الله تعالى الغنائم لهذه الأمَّة تكرمةً وعوناً لها على الجهاد في سبيل الله تعالى.

٦١٠. فيها إباحة الغنائم لهذه الأمَّة وهذا من فضل الله ﷻ عليها لأنَّها كانت محرَّمة على من قبلنا كما قال النبي ﷺ: "وأحلَّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي" متفق عليه

٦١١. فيها إشارة إلى حقٍّ من حقوق آل بيت النبي ﷺ يختص بهم دون غيرهم بعد أن حرموا من الصدقة.

٦١٢. لا مانع ولا تعارض بين إعلاء كلمة الله، وبغية والتماس الرزق في الجهاد.

٦١٣. تفيد: أنَّ الإيمان قول وعمل واعتقاد؛ لقوله – بعد ذكره لبعض الأعمال –: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم﴾.

٦١٤. تفيد إثبات العلو لله تعالى.

٦١٥. أكمل الناس عند الله الذي استكمل مراتب العبودية لله، تأمل في الآية وُصف ﷺ بوصفين بأنَّه ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ و﴿عَبْدِنَا﴾، ففي سياق الحقوق وصف بالرسول وعند سياق المدح والثناء والعطاء قال ﴿عَبْدِنَا﴾.

٦١٦. ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ جواز تسمية الأيام ببعض الأحداث التي حدثت فيها.

٦١٧. فيها: بيان عظم شأن من شهد غزوة بدر؛ فبهم ﷺ فرَّق الله بين الحقّ والباطل.

٦١٨. العناية بحقوق ذوي الاحتياجات الخاصة من الفقراء والمساكين وابن السبيل ومن في حكمهم حاضر وظاهر في التشريعات المالية في الإسلام.

٦١٩. فيها: أنَّ الله تولَّى بنفسه قسمة الغنائم، كالميراث؛ وهذا يدلُّك على أهميَّة المقسوم.

٦٢٠. فيها أن معركة بدر الكبرى هي أهم معركة في تاريخنا الإسلامي كله لان الله – جل شأنه – سماها " يوم الفرقان "... فيها فرق بين الحق والباطل وانتصر المسلمين انتصارا عظيما لأنه ثبت أركان الدولة الإسلامية الناشئة الوليدة وانطلقت الدعوة الإسلامية الى كل أصقاع الدنيا بانتصار مدوي...

٦٢١. فيها عناية الإسلام بالأيتام والضعفاء والفقراء والمساكين.

٦٢٢. فيها كمال التشريع الإسلامي وجماله وعدله، وسياسته للدنيا والدين، وفي ذلك رد على العلمانيين والليبراليين ونحوهم من أذناب الشرق والغرب.

٦٢٣. فيها إثبات صفة القدرة له سبحانه..

قال تعالى:﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٤٢]

٦٢٤. فيها: لما ذكر سبحانه في الآية السابقة ملتقاهم صوَّر هنا الحال التي كانوا عليها من اعترافهم بالعجز، وذكَّرهم بذلك وردعهم ودعاهم للمطاوعة.

٦٢٥. فيها الحكمة البالغة في التفريق بين الحقّ والباطل فجعلهم الأقرب للمدينة والماء والعدو الأبعد.

٦٢٦. فيها أن الأمر أمر الله وحده في اجتماعهم؛ لكي ينصر المؤمنين ويذلَّ عدوهم، فالتقدير لهذه الغزوة تقديراً ربَّانيَّاً خلافاً ، فكلا الطرفين لم يخططا لقتال، لقوله ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ لأسباب.

٦٢٧. فيها أنه لا بد من بقاء المؤمن والكافر والصراع بين الحقّ والباطل إلى قيام الساعة.

٦٢٨. تفيد أهمية أن يعرف المؤمن موقعه وموقع خصومه وما يجري حوله في هذه الحياة حسيَّاً ومعنويَّاً؛ ولهذا كان تفعيل وحدة الاستطلاع والاستخبار في الدول من أفضل وأنجع الطرق وأسرع العوامل المادية لاستجلاب النصر في المعارك؛ وكذا التقدم على الأعداء في جميع ميادين الحياة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾.

٦٢٩. يفيد تقدير الله سبحانه الأشياء قبل وقوعها وهذه من مراتب الإيمان بالقدر﴿لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

٦٣٠. فيها أنَّ عناية الله بأوليائه تأتي بتدبير حكيم منه تعالى يهيئ فيها سبحانه الأسباب الداعية لنصرهم.

٦٣١. في قوله تعالى: ﴿لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ تطبيق مهم في معالجة واقع النفس البشرية التي تضعف أمام الفتن والبلايا؛ فبعد أن يتخذ العبدُ أسبابَ النجاة الشرعية والقدرية؛ تأتي هذه الآية بلسمًا ناجعاً، ودواء نافعاً؛ بل شفاء لا يغادر سقما.

٦٣٢. تفيد عظمة أمر الله تعالى القدري فقوله ﴿أَمْرًا﴾ التنكير هنا للتعظيم.

٦٣٣. فيها بيان عظيم قدرة الله وسلطانه على خلقه كلهم؛ فهو سبحانه يسوق المقادير إلى المواقيت سوقا لا يعجزه شيء؛ ألا تراه يقول: "إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له فيها حاجة"؛ وهذا من تمام سلطانه وقدرته – جل ذكره –. فمن جمع بين جيش الإسلام الذي كان

بالجانب الأدنى من الوادي مما يلي المدينة، والمشركين بالجانب الأقصى منه ممَّا يلي مكة، كما قدر أن تكون العير أسفل منهم ممَّا يلي ساحل البحر؛ ليقع ما أراده الله وقدَّره، فنجت العير، وأخطر أبو سفيان قومه بالرجوع، فكابروا وأصرُّوا؛ فالتقى الجمعان في بدر الكبرى وبدر القتال ويوم الفرقان؛ فنصر الله عبده محمدا وصحبه نصرا مؤزرا فـــ ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ﴾ ففرح المؤمنون بنصر الله.

٦٣٤. تفيد أنه قد نلقى في حياتنا أمورًا عدة على غير ميعاد، فيكون في اختيار الله لميعادها خير.

٦٣٥. فيها رأفته ﷻ بالنفس البشرية لعبيده فيعلّل لهم أمره ويشرح لهم فعله، فمن باب أولى أن نمتثل نحن العبيد هذا فيما بيننا، فلا يترفَّع زوج عن التبرير لزوجه، ولا والد أو ولد عن الشـــرح لغيره. فهو منهج يُطبّق -في مجال التعليم والتربية- في كيفية تناول الحادثة شـــرحاً وتعليلاً ونتائجاً.

٦٣٦. رُسمت كلمة الميعاد هكذا ﴿ٱلۡمِيعَٰدِ﴾ بدون ألف وهي الوحيدة في القرآن بهذا الرســـم والمواضع الخمس الأخرى كلها بالألف، فحذف الألف هنا والله أعلم لأنَّ لفظ الميعاد هنا جاء في وصف ميعاد البشر، وميعادهم ناقص كنقص البشر، وأمَّا المواضع الأخرى فهي في وصف ميعاد الله تعالى وميعاده سبحانه كامل لا يتخلف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾.

٦٣٧. تفيد أنَّ أفعال الله تعالى معلَّلة بالحكم والغايات؛ علم من علمها وجهل من جهلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾.

٦٣٨. فيها ﴿عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾ إقامة للحجَّة وقطع للأعذار.

٦٣٩. فيها فضل الله ﷻ ورحمته بعباده فلا يهلك أحدا إلا عن بيّنة وبعد قيام الحجَّة عليه.

٦٤٠. فيها: تأكيد على تسمية وقعة بدر بـ"يوم الفرقان"؛ لقوله: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾، فلا يبقى لأحد على الله حجَّة يحتجُّ بها.

٦٤١. تفيد أنَّ الله يقيم الحجج على خلقه لتنقطع أعذارهم. وأنَّه – سبحانه – يخلق من الأحداث ما يشاء لتقوم الحجَّة؛ كما حصل في قصة أصحاب الأخدود، من اعتراض الدابَّة طريق الناس؛ حيث بدأت هذه الأحداث الكبيرة، وما فيها من توحيد الله، بسبب اعتراض دابَّة إلى أن قامت وظهرت حجَّة الله؛ فآمن من آمن عن بيِّنة، وكفر من كفر على بيِّنة. وهذا من كمال حكمته وعدله.

٦٤٢. إثبات صفتي السمع والبصر لله -... ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

٦٤٣. الختم بالاسمين الكريمين ﴿لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فيه مع إثبات الصفات إشارة إلى معيَّة الله تعالى الخاصة لأوليائه وتطمين لهم ممَّا يزيد الإيمان في النفوس، ويزيد الثقة بقدر الله وأنَّ المآل للمؤمنين خير ونصر وتمكين.

٦٤٤. فيها إشارة إلى العناية بالسيرة والأحداث التاريخية ومعرفة تفاصيلها كما يظهر من هذا الوصف الدقيق في الآية الكريمة، ثم استخلاص العبر والدروس من ذلك.

قال تعالى:﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الأنفال: ٤٣]

٦٤٥. فيها استكمال التدبير الرباني لهذه المعركة فلو بقيت على تخطيط البشر وإحصاءاتهم لكانت النتيجة عكسية ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ ، ﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ فيها بيان أثر الرؤيا الصالحة في تثبيت القلوب والأقدام.

٦٤٦. تفيد حكمة الله تعالى البالغة التي يعجز البشر عن إدراكها في أغلب الأحيان.

٦٤٧. فيها أهميَّة تطمين القلوب وعدم تهويل شأن العدو بحيث تخور القوة وتضعف العزيمة لمواجهتهم.. ولا يعني هذا تجاهل واقع القوى وعدم أخذ ما عنده من قوة في الحسبان ، وفي حديث (من قال هلك الناس فهو أهلكهم) والله أعلم.

٦٤٨. من الأمور المنهي عنها تضخيم قوة العدو، حتى لا تضعف معنويَّات المسلمين.

٦٤٩. فيها معادلة الفشل بالتنازع في الأمر فهو وجه آخر للهزيمة والفشل، وقد يجمع بين الفشل إذا فسر بالهزيمة أنَّ الفشل في ميدان المعركة هو الفشل الخارجي والتنازع في الأمر هو الفشل الداخلي حين لا تجتمع كلمة الناس على رأي.

٦٥٠. فيها أنه إذا أراد الله تعالى أمراً سبَّب له أسبابه ويسر وقوعه.

٦٥١. فيها إشارة لرفعة مقام النبي ﷺ، ومنزلته عند ربّه؛ لقوله عن الرؤية: ﴿يُرِيكَهُمُوهُمْ﴾، ثم تحدَّث عن الفشل والتنازع، فقال: ﴿لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ﴾: فوجَّه الخطاب لغيره. ولأنَّ النبي منزَّه عن هذا؛ ألا تراه يقول: "ولا ينبغي عند نبي تنازع"؟ متفق عليه. فكيف يصدر منه هذا؟

٦٥٢. فيها ذم الجبن وخطره عند القتال؛ لقوله: ﴿لَفَشِلْتُمْ﴾، والفشل: الجبن. وقد تعوَّذ النبي ﷺ منه كثيرا.

٦٥٣. ففيها تعليم لزوم الأدب عند مخاطبة رسول الله ﷺ، أو التحدُّث عنه؛ لقوله: ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا﴾ فأصل الخطاب له ﷺ، لكن انتقل مباشرة إلى غيره قائلا: ﴿لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ﴾. حتى أنَّه ﷻ لم يقل – مثلا –: "لفشلوا"، أو "لفشل أصحابك"؛ لأنَّ فيه شيء من الملامة والتوبيخ. فصلوات الله وسلامه على من اتخذه ربّه خليلا.

٦٥٤. فيها إثبات صفة العلم له سبحانه، إنَّ ربك حكيم عليم.

٦٥٥. فيها إشارة إلى فضل وصدق أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم – وسلامة قلوبهم وطهارة صدورهم؛ للتذييل بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ فالله أرى نبيَّه من أجل أصحابه؛ بدليل: ﴿لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ﴾ ولأنَّ النبي لا يجبن أبداً عن القتال ولو كانوا أضعاف أضعاف واقعهم؛ وتصديقه: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[الفتح: ١٨]. وعليه: فسلامة الصدر تجلب تأييد الله وتوفيقه ونصره والفلاح. وبهذا مكّن للصحابة – رضي الله عنهم؛ سلمت صدورهم اعتقادا وعملا وتعاملا. جمعنا الله بهم في مستقر رحمته. آمين.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الأنفال: ٤٤]

٦٥٦. فيها: بيان عظيم تدبير الله ﷻ لعباده المؤمنين لنصرتهم وإلحاق الهزيمة بإعدائهم.

٦٥٧. فيها: بيان حكمة الله ﷻ البالغة في إغراء كل فريق بالآخر وتقليل كل فريق في عين الآخر ليطمع فيه وذلك عند مواجهة القتال.

٦٥٨. فيها: أنَّ التقليل في أعين الكفار للمؤمنين أنَّ هذا كان قبل القتال ثم كثَّرهم فيها بعده كما قال تعالى ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ (أفاده ابن كثير /).

٦٥٩. فيها يمكن أن يقع خلاف بين المحسوسات والمرئيات وما يدور بخلد المرء، وممكن الاستفادة منه في مجال علم النفس والطب النفسي.

٦٦٠. فيها: أنَّ القضاء والقدر قائم على الأسباب والمسببات.

٦٦١. من بديع صنع الله أن جعل للشيء الواحد أثرين مختلفين، وجعل للأثرين المختلفين أثراً متحداً.

٦٦٢. فيها: أنَّه سبحانه لما أراهم جيش الكفار قلَّة تشجيعاً لهم على القتال.

٦٦٣. فيها: كذلك عندما قلَّلكم بأعينهم حتى رأوكم قلَّه فاستهانوا بقتالكم، فكان النصر لكم وهذا من تأييد الله ونصره لأوليائه.

٦٦٤. فيها العناية بالروح المعنويَّة للجيوش الإسلامية، وكل ما يشجِّع على الثبات في القتال ما يدلُّ على ذلك فلمَّا أرسل من يستطلع نقض قريظة للعهد قال لهم في ﷺ وفي هدي النبي حال وجدوهم على النقض: "ألحنوا لي لحناً ولا تفتوا في أعضاد الناس" الحديث وهو في كتاب السير والمغازي من صحيح البخاري.

٦٦٥. فيها: تمام وعظيم قدرة الله، وأنَّه لا يعجزه شيء.

٦٦٦. تفيد: أنَّ الأبصار والسمع ملك لله؛ يتصرف فيها كيف يشاء؛ وتصديقه: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾.

٦٦٧. كمال قدرة الله وحكمته وتصرفه في خلقه.

٦٦٨. فيها: عند قوله تعالى ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ تنبيه على أنَّ أحوال الدنيا غير مقصودة لذواتها وإنَّما المراد منها ما يصلح أن يكون زادا ليوم المعاد. (أفاده القاسمي /).

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]

٦٦٩. فيها: مناسبة دقيقة لما قبلها؛ فإنَّه – تعالى – لما أخبر عمَّا كان من فعله في شأن الرؤية، وأخبر عن دلائل قدرته لينفذ ما أبرمه، نبَّه بعدها إلى عدم الاتكال وهجر الأخذ بالأسباب، والتي من جملتها الثبات عند اللقاء؛ فإذا رأى المسلمون جيش المشركين أكثر عدداً يوماً، لا يفرُّون عند اللقاء؛ ولكن يثبتون ويستعينون الله بذكره.

٦٧٠. فيها: الأمر بالأخذ بعوامل النصر وهو الثبات عند لقاء العدو والاستعانة بذكر الله ﷻ.

٦٧١. فيها أنَّ ذكر الله تعالى من أعظم عوامل الثبات في الجهاد.

٦٧٢. تنكير ﴿فِئَةً﴾ متابعة في الإعداد والتهيئة النفسية للمؤمنين فيما هم مقبلون عليه في معركة الحقِّ مع الباطل وهي كثرة المخالفين وتنوُّعهم.

٦٧٣. يفيد تنكير ﴿فِئَةً﴾ يعم أي فئة تستحق القتال سواء كانت كافرة أو باغية.

٦٧٤. تفيد جواز حذف ما يعلم من السياق إيجازاً واختصاراً لقوله تعالى: ﴿فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ﴾ أيّ فئة من المشركين أو الباغين.

٦٧٥. تفيد أن الثبات مجاهدة؛ مأمور به المؤمن، والإكثار من الذكر معين ذلك.

٦٧٦. فيها الأمر الصريح عند ملاقاة العدو بالثبات وهو مطلق ﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾ وهذا يشمل ثبات القلوب، وثبات الأقدام، وثبات المواقف، ثم أرشد تبارك وتعالى إلى أقوى عوامل الثبات وهو ذكر الله تعالى آمرا بالإكثار منه.

٦٧٧. تفيد أنَّ الثبات على المبادئ وفي الميدان وعلى المواقع الحربية أقوى تأثيراً على نفس العدو من المعالجة والمحاولة في ردة فعل أخرى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ ولم يقل: (فقاتلوا) ؛ ولهذا كان النبي ﷺ ثابتاً في جميع المعارك التي خاضها مع الأعداء؛ ولكنَّه لم يقتل بيده الشريفة إلا كافراً واحداً؛ فصلوات ربي وسلامه عليه.

٦٧٨. كثرة الذكر في الشدائد والمصاعب والحروب يُعرّف العبد بأنَّه إنَّما ينتصر ويأمن ويسلو بالله لا بنفسه أو بغيره أو بعدَّته.

٦٧٩. -كثرة ذكر الله تجلو عن العبد ما قد يطرأ على نفسه من العجب بنفسه.

٦٨٠. فيها أنَّ عَلى العَبْدِ ألّا يَفْتُرَ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ، أشْغَلَ ما يَكُونُ قَلْبًا، وأكْثَرَ ما يَكُونُ هَمًّا، وأنْ يَلْتَجِئَ إلَيْهِ عِنْدَ الشَّدائِدِ، ويُقْبِلَ إلَيْهِ بِكُلِّيَّتِهِ، فارِغَ البالِ، واثِقًا بِأنَّ لُطْفَهُ لا يَنْفَكُّ عَنْهُ في حالٍ مِنَ الأحْوالِ... (أفاده القاسمي /)

٦٨١. تفيد رعاية الله للعباد في بيان أسباب الثبات والفلاح.

٦٨٢. فيها توجيه للعلماء والدعاة بضرورة الثبات والصبر في مجاهدة أعداء الملة بالحجَّة والبيان ودحض الشبهات وتثبيت المؤمنين على دينهم وخطورة التقصير في ذلك.

٦٨٣. إذا كان يلزم العبد كثرة الذكر في ساحة المعركة فمن باب أولى في غيرها.

٦٨٤. تفيد أنَّ من أعظم أسباب النصر في الحروب والمعارك القوة الروحية التي يستمدها المؤمن من ذكر الله تعالى.

٦٨٥. تفيد أنَّ من أعظم ما يبرز ويظهر صدق وقوة محبة الحبيب لحبيبه هي عندما يذكره في أثناء ملاقاة الأعداء وتقابل الصفوف وسلِّ السيوف؛ وهي حالة لا يهم المرء فيها غير نفسه، وقد كان المحبُّون يفتخرون بذكر من يحبونهم في هذه الحالة؛ كما يظهر ذلك في أشعار العرب.

٦٨٦. تفيد: أنَّ المؤمن لا يغفل عن ربِّه؛ مهما نزل به. وفي الحديث: "ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع. قال: ابنوا لعبدي..." رواه الترمذي. وإنَّما سأل الله عن قيله وهو

أعلم، وما استحق ما أعده له إلَّا لما قاله من هذا الذكر العظيم عند هذه المصيبة الكبيرة التي تأخذ القلب أخذا وتصرفه صرفا – نسأله العافية.

٦٨٧. تفيد رعاية الله لعباده المؤمنين حيث وجَّههم لما يحقق فلاحهم.

٦٨٨. الفلاح أصله من فلح والفلح الشق والفلَّاح بتشديد اللام يفلح الأرض فيشقها بالمحراث ليزرعها، فالفلح فيه صعوبة ومشقة لكن ثمراته عظيمة وطيبة.

٦٨٩. فيها الحرص على الفَلَاح وبيان بعض أسبابه وهي الثبات وكثرة ذكر الله تعالى.

٦٩٠. فيها التأكيد على أنَّ الفلاح متحقق للمؤمنين عند ثباتهم وكثرة ذكرهم الله ﷻ.

٦٩١. تفيد بمفهوم المخالفة أنَّ الهزيمة منوطة بعدم الثبات والتقصير في ذكر الله ﷻ.

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]

٦٩٢. فيها أنَّ طاعة الله ورسوله تعصم من التنازع والشقاق.

٦٩٣. وجوب اتباع القرآن والسنة.

٦٩٤. الرد على منكري السنة النبوية.

٦٩٥. فيها بدلالة الاقتران أنَّ طاعة الله ورسوله سبب في اجتماع الكلمة وصفاء النفوس وعدم النزاع.

٦٩٦. فيها أنَّ التنازع والشقاق سبب للفشل وشتات الجمع والقوة.

٦٩٧. جعل الله سنناً كونية لا تحابي أحداً، ومن ذلك أنَّ أصحاب الحقِّ والقوة تذهب قوَّتهم وعزَّهم بسبب التنازع والاختلاف.

٦٩٨. فيها أنَّ من أسباب سقوط الدول وذهاب ريحها وقوتها وقوع التنازع فيها.

٦٩٩. تفيد سرعة تأثير النزاع في ذهاب قوة الأمَّة ﴿فَتَفۡشَلُواْ﴾؛ ولذا الأعداء ما تمكنوا منَّا إلَّا بسبب نزاعاتنا.

٧٠٠. فيها مقصد من أعظم مقاصد الشريعة الإسلامية وهو اجتماع الكلمة ووحدة الصف وترك التنازع والاختلاف والتفرُّق.

٧٠١. تفيد وجوب الحفاظ على وحدة واجتماع الكلمة وسرعة معالجة كل ما يؤدي إلى النزاع.

٧٠٢. تفيد بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن المعاني الواسعة بعبارة واحدة ﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ التي أطال العلماء في شرحها.

٧٠٣. فيها: الأمر بالصبر عند القتال وأنَّه مستلزم للنصر.

٧٠٤. في الأمر في ختامها بالصبر إشارة إلى الصبر على الجماعة والاجتماع وإن كان فيه ما يكره، ومن عظيم تحقيق السلف لهذا الأصل قول ابن مسعود ﷺ: "ما تكرهون في الجماعة خير مما تحبون في الفرقة" .

٧٠٥. فيها أنَّ بالصبر تنال الإمامة وينال النصر.

٧٠٦. فيها: معيَّة الله الخاصَّة.

٧٠٧. تفيد أنَّ سنن الله لا تحابي أحد.

٧٠٨. تفيد الترغيب في الصبر الذي به يتحقق النصر ومعية الرب جل وعلا.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ [الأنفال: ٤٧]

٧٠٩. فيها مناسبة لما قبلها ولموضوع السورة بالحث على الإخلاص في الجهاد وأن يكون القتال لتكون كلمة الله هي العليا، وعدم الخروج رياء وسمعة وبطراً كما يفعل الكفار.

٧١٠. تفيد مع ما قبلها ومع الوحدة الموضوعية للسورة أنَّ من أعظم وأبرز مظاهر وأسباب انتصار المجاهدين في حروبهم ومعاركهم أنَّ الحامل لهم على الثبات والصبر والطاعة في مواجهة الأعداء؛ كان هو العبودية لله تعالى والرغبة فيما عنده -؛ والسعي لإعلاء كلمة الله والانتصار لدينه؛ وقد كان هذا هو الفارق الحقيقي بينهم وبين من يثبت ويصبر في المعارك والمواجهات من

الكفار وغيرهم من دعاة القومية والوطنية والشعوبيين والمرتزقة المستأجرين. ولذلك ختم الله الآية الكريمة المباركة بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ ، فالإحاطة الربانية تمنح النفس المؤمنة الطمأنينة والسكينة بما وعدها الله من النصر.

٧١١. مقابلة الجمع بالجمع في الخبر (الخبر والصفة والصلة وشبه الجملة وغيرها) والإنشاء (الأمر والنهي والاستفهام وغير ذلك) تجعل القسمة آحاداً أي لا يكن حال وشأن أي واحد منكم مثل حال وشأن أي فرد من هؤلاء الأفراد الذين خرجوا من ديارهم على هذه الصفة المذمومة حين يخرج من بيته، فليس النهي عن أن يحدث هذا من جميع أهل الإيمان المخاطبين قبل ذلك بوصف الإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بل النهي في أن يحدث هذا من آحاد الأمَّة.

٧١٢. تفيد أهمية التعليم والتعلم عن طريق ضرب الأمثلة بالأشخاص وخصوصا من هم القدوات في نظر مجتمعاتهم؛ إما سلبا وإيجابا؛ وفق مقاصد وتعاليم الشريعة الإسلامية.

٧١٣. تفيد أهمية استغلال العالم والمربي للوقائع والأحداث التي يمرُّ بها المتعلِّم والمتربِّي لنزع وتصحيح بعض المفاهيم والصفات التي ينبغي أن يتجنبها أو يحذر من الوقوع فيها.

٧١٤. فيها النهي عن الكبر والأشر والبطر وأنَّها من صفات الكفار.

٧١٥. فيها التحذير من الرياء وهو مما يدخل على المجاهدين؛ كما في حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله الرجل يقاتل رياء ويقاتل حميَّة، ويقاتل غضباً أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله". رواه البخاري.

٧١٦. فيها بيان أعظم مقاصد الكفار الصدّ عن سبيل الله تعالى.

٧١٧. فيها تنبيه للمؤمنين ألَّا يعملوا عملاً إلا لله ﷻ، وطلب ما عنده تبارك وتعالى، ولا يفعلوا كفعل المشركين في مسيرهم إلى بدر طلب رئاء الناس.

٧١٨. تفيد كمال علمه بكل ما يفعله أعداء الملَّة وله الحكمة البالغة من وراء صـــنيعهم، وهو قادر على أخذهم متى شاء ذلك، لأنَّه محيط بهم.

٧١٩. تفيد عظمة سبيل الله وخطورة الصدّ عنه، ومحاربة دينه وعباده الصالحين.

٧٢٠. فيهـا تطمين لأهـل الإيمـان بأنَّ الله محيط بالكـافرين وبعملهم فلا يخـافوهم وليعملوا بأسباب النصر المذكورة في هذه الآيات الكريمات.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨]

٧٢١. فيها: تفيد دقَّة التناسب وروعة التناسق مع ما قبلها؛ فبعد أن ذكر الله - الذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله ذكر قائد المتكبرين والبطرين وقدوة المرائين والصادين عن سبيل الله؛ وإنما قال لعنة الله عليه: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾؛ رياء وسمعة وهو كاذب في دعواه.

٧٢٢. فيها أنَّ من أكبر مكر الشيطان وأوليائه وإخداعهم هو تزيين الباطل وإخراجه في صورة حسنة وإلا لنفرت منه الطباع السليمة ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾.

٧٢٣. الحذر من الشيطان ومن وساوسه وهواجسه وإغراءاته.

٧٢٤. فيها: أنَّ الشيطان لا يفي بعهد ولا وعد؛ بل إنَّ ديدنه الخيانة بالعهد والخلف بالوعد.

٧٢٥. فيها أنَّ من مكائد الشيطان إيهامهم بالغلبة والقوة والاغترار بقوتهم ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ ونفوسهم مهيَّأة لقبول هذه الخدعة الثانية لأنَّهم ﴿خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ .

٧٢٦. فيها أنَّ من مكائد الشـيطان إيعادهم بأنَّه سـيكون مجيراً مُعيناً لهم في ذلك كله. وهذا ديدنه ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾. وقد تبيَّن ذلك جليَّاً في هذا الموضع عندما التقى الجمعان.فكان منه:

- النكوص وإخلاف الوعد.
- البراءة منهم ساعة هم أحوج ما يكونون لعونه.

○الإسهام في هزيمتهم النفسية بأن أكَّد أنَّه يرى ما لا يرون فلا يمكنهم النصر ويستحيل عليهم ذلك.

٧٢٧. فيها أنَّ من ادَّعى الخوف من الله فعليه بتقوى الله، وإلَّا فإنَّ ذلك ادِّعاء لا بيِّنة فيه.

٧٢٨. تفيد أن الشيطان شريك لأعداء الله في مؤامراتهم ومؤتمراتهم.

٧٢٩. فيها أنَّ القتال يحتاج إلى التكتُّل والتجمع ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ وهذه استراتيجيات معروفة تستخدم في الحرب اليوم.

٧٣٠. فيها: أنَّ ولاية الشيطان ولاية خسران وانقطاع؛ وتصديقه: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ﴾. وقول الله: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

٧٣١. تفيد أنَّه "ليس الخبر كالعيان" وذلك في قوله: ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾.

٧٣٢. تفيد أنَّ خوف الشيطان من الله خوف قهري طبعي وليس خوف إيمان وعبادة؛ ولهذا قد ينفعه هذا الخوف في الدنيا من خلال الفرار من مواطن عقوبة الله تعالى؛ ولكنه لا ينفعه في الآخرة.

٧٣٣. تفيد مع ما قبلها أنَّ المؤمن يقاتل عدواً ظاهراً وعدوَّاً خفيَّاً وكلّاً المعركتين يحتاج للعدة والعتاد.

٧٣٤. تفيد أن الخوف من الله لا ينفي من العبد اقتراف الذنوب والمعاصي.

٧٣٥. تفيد مع ما قبلها أنَّ عناية الله وعونه ونصره من أبعد الأمور عن الكفار لكونهم ليسوا من حزبه؛ بل من حزب الشيطان؛ وفي ذلك تنفير لحزب الله من التشبُّه بصفات حزب الشيطان.

٧٣٦. تفيد أنَّ الجنَّ يشـــاركون الإنس في جنس التكليف؛ وأنَّ العصـــاة منهم مســـتحقون للعقوبة؛ لأنَّ الله ﷻ أخبر عن الشـــيطان أنَّه يخاف الله ويخاف عقوبته؛ والعقوبة لا تكون إلَّا بترك مأمور أو فعل محظور.

٧٣٧. تفيد حجَّة على المعتزلة والقدرية الذين يجعلون الشـرور من الشـيطان على الحقيقة بقوة وسلطان فيه؛ وقد أوضحت الآية أنَّه لا يقدر على ضرِّ أحد ولا نفعه؛ وأنَّ تزيينه غرور؛ وقوله كذب لا حقيقة.

٧٣٨. في الآية عبرة وعظة عامة في التنفير من اتباع خطوات ووســاوس الشـيطان وعظة وعبرة خاصَّة للذين يتعاملون مع الجنَّ من السحرة والمشعوذين في أنَّه يساعدهم ويعاونهم على أمرهم ويتخلَّى عنهم إذا نزل العقاب.

٧٣٩. الكفار أكثر عدداً وعدَّةً من المســلمين، ومع ذلك قال لهم إبليس ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ أدرك إبليس قيمة التحفيز والتشجيع المعنوي.

٧٤٠. تفيد: أنَّه ينبغي للمســلم أن يعتني بما يوجب نزول ودخول الملائكة. لأنَّ من ثمرات وجودها أنَّ الشياطين تفرُّ منها. فلا يتخذ الصورة والكلب، وغيره ذلك مما ورد.

٧٤١. فيها ضعف وهشاشة العلاقات بين الفرقاء إن لم تكن في الله فبمجرد اختلاف المصالح يظهر التفرق والشتات.

قال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩]

٧٤٢. ومن التناسب مع ما قبلها أنَّ فيها بيان لصنفين آخرين من أعداء المسلمين بعد بيان العدو الرئيسي وهم المشركون الذين خرجوا بطراً ورئاء الناس لمحاربة الإسلام وقد شجَّعهم الشيطان على ذلك.

٧٤٣. تشير الآية إلى أنَّ كيد المنافقين لا يقل خطورة عن كيد الشيطان بدلالة المناسبة بين الآيتين.

٧٤٤. فيها: أنَّ النفاق أخص من مرض القلب لأنَّ مرض القلب يطلق على الكافر – .

٧٤٥. فيها: أنَّ المعايير معايير إلهية سماوية وليست كما يظن القوم.

٧٤٦. تفيد أنَّ سوء الظن بدين الله تعالى وبشريعته وتعاليمه نفاق؛ وصاحبه مريض القلب؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾.

٧٤٧. تفيد أنَّ احتقار الصحابة وعدم تقديرهم واحترامهم والاعتراف بفضلهم نفاق.

٧٤٨. تفيد فضيلة الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم (والحقّ ما شهدت به الأعداء) وبيان ذلك: أنَّ هؤلاء المنافقين ومرضى القلوب أرادوا ذم الصحابة والطعن فيهم إلَّا أنَّه لم يدر في خلدهم أنَّهم بقولهم هذا يمدحونهم بدلاً من ذمِّهم أو الطعن فيهم؛ وذلك من جهتين:

- أولاً: نسبوا إليهم هذا الدين مع أنَّه دين الله؛ وفي هذا مدح عظيم للصحابة رضوان الله عليهم بحيث أقرَّ لهم هؤلاء بأنَّ هذا الدين الإلهي أصبح ملكاً لهم يدافعون عنه كما يدافعون عن أي شيء من ممتلكاتهم المنسوبة إليهم.
- ثانيا: أنَّ الصحابة الكرام من قوَّة تمسُّكهم بدينهم أصبحوا كالمغرر بهم الذين سلب منهم العقل والتفكير والإرادة؛ وفي هذا أيضا مدح عظيم للصحابة رضوان الله عليهم حيث استولى هذا الدين على عقولهم وقلوبهم واهتماماتهم؛ وأصبحوا يقدِّمونه على كل غال ونفيس؛ فما أعظمه من فضل وما أروعه من مدح؛ (والفضل ما شهدت به الأعداء).

٧٤٩. حسابات الكفار والمنافقين ماديه لخواء أرواحهم فقد غرَّهم عددهم وعدَّتهم وقد عمي الله بصيرتهم وما أقبح أن تكون على باطل وتظن أنَّه الحقّ (اللهم أرنا الحقَّ حقًّاً وارزقنا اتباعه).

٧٥٠. فيها أهمية العناية بالقلب والحذر من مرضه بالشبهات أو الشهوات.

٧٥١. هذه الآية ومثيلاتها تذكر لنا نماذج من البشر تتكرر مدى الدهور والأعوام ولذلك لا تنقضي عجائب هذا الكتاب العزيز، فنجد في عصرنا من المنافقين ومرضى القلوب من يماثلهم حذو القذة بالقذة في مواقفهم وتصوراتهم ونفسياتهم التي فضحها القرآن الكريم. فلمَّا رأى المنافقون والذين في قلوبهم مرض في عصرنا قوى الكفر ظاهرة ومسيطرة في مقابل ضعف

المسلمين رأوا أنَّ من المنطقي الميل إلى الاستكانة والانكسار لهم. ورأوا أنَّ الوقوف أمام هذا الباطل هو انتحار ومحاولة فاشلة لا يقدم عليها إلا مخدوع مغرَّر به.

٧٥٢. المغايرة بين ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ و ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ تحتمل :

- أنَّها من عطف العام على الخاص.
- تحتمل المغايرة وأنَّ المؤمنين مبتلون بفئتين (أهل نفاق) وهم أهل الشبهات، و (مرضى قلوب يتأثرون بالمنافقين) وهم أهل الشهوات.

٧٥٣. البدء بالمنافقين في الآية لخطرهم على المجتمع.

٧٥٤. قول المنافقين ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يدل: على احتقارهم للمؤمنين بعدم تسميتهم.. وهذا حقد.

٧٥٥. تشير إلى: أنَّ المجاهدين في سبيل الله سيجدون من يتَّهمهم ويخذلهم؛ فعليهم كما قال الله: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾.

٧٥٦. فيها: من يسلِّم الأمر لله والثقة به وبإحسانه ينال حفظه ونصره.

٧٥٧. تفيد ختام الآية حسن رد لما تضمنه قول المشركين في قوله ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾.

٧٥٨. تفيد أنَّ الإيمان يوجب لصاحبه الإقدام على الأمور الهائلة التي لا يقدم عليها الجيوش العظام، فإنَّ المؤمن المتوكِّل على الله، الذي يعلم أنَّه ما من حول ولا قوة ولا استطاعة لأحد إلَّا بالله تعالى، وأنَّ الخلق لو اجتمعوا كلهم على نفع شخص بمثقال ذرة لم ينفعوه، ولو اجتمعوا على أن يضروه لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، وعلم أنَّه على الحقِّ، وأنَّ الله تعالى حكيم رحيم في كل ما قدَّره وقضاه، فإنَّه لا يبالي بما أقدم عليه من قوة وكثرة، وكان واثقاً بربِّه، مطمئن القلب لا فزعاً ولا جباناً، ولهذا قال ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ لا يغالب قوته قوة. ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما قضاه وأجراه. (أفاده السعدي /).

٧٥٩. تفيد أنَّه ينبغي للمؤمن أن لا ينشـغل في الردَّ على كل ناعق وناهق ونابح؛ بل عليه أن يسـير متوكلاً على الله تعالى في جميع شـؤون حياته، مسـتمداً منه العون والتأييد. لقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

٧٦٠. تفيد: أنَّ الله يعز عبده بتمسكه بدينه.

٧٦١. فيها أنَّ المنافقين والذين في قلوبهم مرض قد نسبوا الغرور والخداع إلى هذا الدين، فالدين في هذه الآية هو في محل رفع الفاعل فسـبب هذا الغرور في نظرهم هو هذا الدين؛ لأنَّهم نظروا إلى الأسـباب والمعايير المادية فقط. بينما علم المؤمنون أنَّ ثَمَّة معايير أخرى لا يفقهها المنافقون وما علموا أنَّ معيار النصـر الحقيقي هو هذا الدين فبتحقيق التوكل على الله تعالى حقَّ التوكل بعد أخذ الأسباب يكون النصر بإذن الله؛ ولذلك قال تعالى بعدها مباشرة ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. وبهذا قد تغلب القلة وتنهزم الكثرة.

٧٦٢. فيها أنَّه لما قال الشـيطان لأوليائه ﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ قال الله تعالى لأوليائه ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ عزيز لا يُغلب ولا ينال جنابه، وحكيم يضـع النصـر موضـعه ويقدر الخير لأهله المستحقّين له.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠]

٧٦٣. فيها مناسـبة لما قبلها فبعد هذا البيان لأحوال الكافرين في حياتهم انتقل القرآن لبيان أحوالهم عند مماتهم.

٧٦٤. تفيد مناسبة ظاهرة وتناسـقاً رائعاً مع ما قبلها، فبعد أن ذكر الله تعالى في بداية السورة بعض مهام الملائكة المشاركين في غزوة بدر، وهو قتال المشركين وضرب أعناقهم وبنانهم، ذكر في هذه الآية مهاما أخرى لبعض الملائكة المشاركين، وهو قبض أرواح المشركين وضرب وجوههم وأدبارهم.

٧٦٥. وفي الآية (ولو ترى، أي تعلم لأنَّ الرؤية لم تكن مباشـرة، وإن كان إحسـاس الصـحابة بهم كان واضحاً، وهنا تتجلى حكمة الله في عدم إظهارهم رغم مشاركتهم في القتال.

٧٦٦. تفيد أنَّ النبي ﷺ لا يعلم من الغيب إلَّا ما يطلعه ربّه عليه فكيف بغيره ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾.

٧٦٧. تفيد كثرة جنوده جل وعلا وكمال قدرته وعظيم سلطانه..

٧٦٨. تفيد أنَّ أهوال الآخرة تبدأ من لحظة خروج الروح، كما أنَّ نعيم المؤمن كذلك يبدأ من هذه اللحظة، فالموت نقطة تحول كبيرة لا يدركها إلَّا من أطلعه ربّه عليه.

٧٦٩. فيها: يبدأ عذاب البرزخ حين الوفاة.

٧٧٠. فيها: تقديم المفعول ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ على الفاعل ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ للاهتمام.

٧٧١. تفيد بيان كثرة عدد رسل الله تعالى من الملائكة لمهمَّة قبض أرواح المخلوقين، لقوله تعالى: ﴿يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، ولم يقل (ملك الموت)، وتصديقه قوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾.

٧٧٢. تفيد هوان الكافر عند ربِّه وشدَّة ما يلحقه من عذاب من لحظة موته وما بعده.

٧٧٣. تفيد بيان مشهد من مشاهد قدرة الله تعالى على أخذ أعدائه وإحلال العذاب المهين عليهم، وذلك بأمر ملائكته بقبض أرواحهم في صورة منكرة ومفزعة.

٧٧٤. تفيد أهميَّة استحضار بعض المواقف والوقائع التي تشفي صدور المؤمنين المجاهدين وتذهب غيظهم وحنقهم على أعداء الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

٧٧٥. تفيد بإشارة لطيفة إلى أنَّ ملائكة الموت كانت تلاحق المشركين في غزوة بدر حينما يقتلهم المجاهدون؛ فكانت تضرب وجوههم بالسيف حال الإقبال، وإذا ولّوا ضربوا أدبارهم، لمزيد تعذيبهم حال نزع أرواحهم.

٧٧٦. خصَّ – سبحانه– الضرب للوجوه والأدبار بالذكر، لأنَّ الوجوه أكرم الأعضاء، ولأنَّ الأدبار هي الأماكن التي يكره الناس التحدُّث عنها فضلاً عن الضرب عليها. أو لأنَّ الخزي والنكال في ضربهما أشدُّ وأعظم.

٧٧٧. تفيد أنَّ من أشـــدِّ أنواع العقاب أن يجتمع على المرء العقاب الجســـدي والنفســـي، والفعلي والقولي؛ قال تعالى: ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾.

٧٧٨. فيها الإيمان بالملائكة، وأنَّهم أجسام وأنَّهم يضربون الكفار، وفي هذا ردّ على الفلاسفة الذين يقولون إنَّ الملائكة هي قوى الخير في النفوس وليست أجساماً.

٧٧٩. صلة الموصول تفيد أنَّ الكفر هو سبب هذا الضرب والإهانة.

٧٨٠. تفيد تهكُّم الملائكة بالكفار الذين تقبض أرواحهم، من خلال بشـــارتهم بما هو أدهى وأمرّ مما هم فيه؛ وأنَّه قليل من كثير، وذلك لأنَّ الذوق يكون في المطعمات المستلذة غالباً.

٧٨١. تفيد مع ما بعدها أنَّه ينبغي للمعاقب وخصـوصـاً المعلِّم والمربِّي أن يبيِّن لمن يعاقبه –من المتعلمين والمتربين– الأسـباب التي أدَّت إلى أن يسـلك معه طريق العقوبة؛ لقول الملائكة لهؤلاء الكفار المعاقبين: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾. ومن الخطأ الكبير في التربية أن يسـكت المربِّي عن بيان الأســباب عقب تنفيذ العقوبة في حق المتربِّي المخطئ؛ فالمخطئ وإن لم يســتفد من هذا البيان فإنَّ غيره بالتأكيد سيستفيد منه؛ وسيحجم عن هذا الخطأ الذي وقع فيه المتقدِّم.

٧٨٢. فيها المشـــهد التصـــويري ممَّا يدلُّ على أنَّ القرآن هو كتاب معجز، ونظام بديع محكم وهذا أسلوب تعليمي حديث.

٧٨٣. فيها مشهد ترهيبي شديد على السامع وبالذات إذا قرع آذان الكفار.

٧٨٤. فيها: الخطاب للنبي ﷺ ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ وفيه حذف لجواب لو الشـــرطية، والحذف هنا بليغ لأنَّه دلَّ على التعظيم، أي: لرأيت هولاً وعجباً.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥١]

٧٨٥. اسم الاشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ يدلُّ على الفظاعة والهول.

٧٨٦. فيها حلم الله.. لقوله ﴿قَدَّمَتۡ﴾ فلم يعاجلهم في حينها.

٧٨٧. يفيد حذف الضمير؛ فلم يقل (قدمته) لتنوُّع ما فعلوه بأيديهم وأبدانهم.

٧٨٨. يفيد ذكر الأيدي دون غيرها من أعضاء الكفار إشارة إلى أنَّها هي مناط أكثر أفعال العباد، ولذلك تنسب إليها الأعمال في آيات كثيرة، ولو كانت بجارحة أخرى.

٧٨٩. تفيد جواز إطلاق البعض وإرادة الكل إذا وجدت قرينة تدلُّ عليه؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، ونظيرها: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾، المراد به: مما عملنا، مع إثبات اليد لله تعالى.

٧٩٠. تفيد أنَّ الجزاء من جنس العمل، وأنَّ العبد في جميع المراحل التي تعقب الوفاة يجازى بحسب ما قدَّم من أعمال.

٧٩١. تفيد أن الله تعالى من كمال عدله أن بيَّن لهم سبب استحقاق العذاب.

٧٩٢. فيها أنَّ العبد تطلق على المؤمن والكافر.

٧٩٣. في الآية ترهيب وترغيب، ترهيب من عمل السيئات، وترغيب ببيان عدل الله ورحمته بعباده.

٧٩٤. فيها سماع المتوفى لملائكة العذاب لخطابهم المباشر لهم.

٧٩٥. فيها إثبات عذاب البرزخ.

٧٩٦. فيها الردُّ على منكري عذاب القبر.

قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٢]

٧٩٧. تفيد دقة المناسبة بين الآيات فلَمّا ذَكَرَ اللَّهُ – سُبْحانَهُ – ما أنْزَلَهُ بِأهْلِ بَدْرٍ أتْبَعَهُ بِما يَدُلُّ عَلى أنَّ هَذِهِ سُنَّتُهُ في فِرَقِ الكافِرِينَ.

٧٩٨. تفيد مع ما قبلها أنَّ غزوة بدر وما حدث للمشركين من قتل وهلاك ودمار، يشابه كثيرا ما حدث لآل فرعون ممن تفاخروا بكثرتهم وقالوا: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾، فلم تنفع آل فرعون كثرتهم وقلة عدد بني إسرائيل في كسب المواجهة والانتصار على نبي الله موسى عليه السلام ومن معه، بل حصل العكس تماما، كما حصل في غزوة بدر للمشركين مع النبي ﷺ ومن معه، وكأنَّ التاريخ أعاد نفسه، وسنة الله تعالى كانت حاضرة لم تتبدل ولم تختل.

٧٩٩. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها فبعد أن ذكرت الآيات السابقة العوامل والأسباب التي أدَّت إلى هزيمة الكفار، ذكرت هذه الآية أمثلة من أسلاف الكفار ممن أدَّت بهم تلك الأسباب والعوامل إلى الهزيمة الساحقة والعذاب الماحق والعقاب الشديد.

٨٠٠. التهديد بالتحذير من عقوبة السابقين من عادة القرآن.

٨٠١. تفيد أهمية معرفة التاريخ والسنن الإلهية في الكون، والسنن الإلهية لا تختل ولا تتبدل ولا تحابي أحداً.

٨٠٢. فيها: التحذير الشديد من اتباع الظالمين وأهل الكفر والضلال، ومساندتهم باتباع وغيره. وأنَّ من تابعهم ورضي، دخل معهم في الحكم والوعيد؛ لقوله: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾؛ ولو شاء لقال: "كدأب فرعون وآله – مثلا". أو يذكر فرعون فحسب؛ لكنَّه خصَّ وقدَّم الآل، ليبيِّن أنَّ فرعون تمكَّن بآله هؤلاء. وأتباع الرجل وأنصاره يدخلون في آله. هذا، وإذا كان مجرد الركون إلى الظالمين يوجب مسيس النار، فاتباعهم من باب أولى؛ قال الله: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾.

٨٠٣. يفيد التصريح بذكر آل فرعون في هذه الآية على وجه الخصوص دون غيرهم ممن سبقوهم في الكفر والظلم؛ إشارة واضحة إلى كثرة ما كانوا فيه من النعم، مع شدة معاندتهم وتكبُّرهم، ومقارنتهم بكفار مكة الذين أنعم الله تعالى عليهم بنعمة الأمن ووفرة الأرزاق، حيث ذكرت آيات كثيرة في القرآن الكريم ما أنعم الله تعالى على آل فرعون من نعم إلهية ومنن ربانية، كما قال تعالى: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٢٥ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ۝٢٦ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾. وقال تعالى مبيّناً ما أنعم به على قريش من نعمة الأمن والأمان وتوفُّر الأرزاق، ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡ﴾ وقال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ﴾.

٨٠٤. وتصريح ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ يفيد الكثرة والتكرار حيث هذا دأبهم.

٨٠٥. ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ تدلُّ على أنَّ للباطل أعواناً وغالباً ما يكون الأهل والأقارب هم من يتعصبون لقريبهم.

٨٠٦. تفيد جواز حذف ما يعلم من السياق؛ فقوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ تقديره: دأب هؤلاء الكفار الهالكين كائن كدأب آل فرعون؛ أي: حالهم كحال آل فرعون. قال الناظم:

وحذف ما يعلم جائز كما ... تقول: زيد بعد من عندكما؟
وفي جواب كيف زيد؟ قل دنف ... فزيد استغني عنه إذ عرف

٨٠٧. تفيد أنَّ في حذف هؤلاء الكفار من السياق؛ استحقار لهم؛ وكأنهم لا يذكرون عندما يذكر هؤلاء الكفار العتاة الأشداء الذين كانوا أشدّ منهم قوة وأكثر جمعا.

٨٠٨. فيها أنّ سنة الله ﷻ ماضية في أخذ من كذَّب بآياته وأخذه سبحانه أليم شديد قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

٨٠٩. تفيد أنَّ الله ﷻ لا يظلم العباد؛ وإنَّما يؤاخذهم بسبب الذنوب والمعاصي، لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ وفي هذا تأكيد لما دلَّ عليه قول الملائكة لكفار قريش: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

٨١٠. يفيد التعبير بالذنوب في قوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ دون أن يقول: (كذبوا بآيات الله فأخذهم الله بتكذيبهم) وذلك إشارة إلى أنَّ هؤلاء المعاقَبين قد ارتكبوا ذنوباً أخرى غير التكذيب بالآيات، وأنَّ التكذيب بالآيات ما كانت إلَّا مقدمة لجميع الذنوب والمعاصي التي ارتكبوها؛ وفي هذا دلالة واضحة على خطورة التكذيب بآيات الله تعالى، وأنَّها سبب لجميع الذنوب والمعاصي.

٨١١. تفيد كثرة آيات الله تعالى الدالَّة على وحدانية الله تعالى وصدق ما جاءت به الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، سواء كانت آيات مرئية أو متلوَّة؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾.

٨١٢. تفيد أنَّ القرآن الكريم يفسِّر بعضه بعضاً؛ وبيان ذلك: أنَّ الله ﷻ لم يبيّن ههنا مَن هؤلاء الذين من قبلهم؛ وما ذنوبهم التي أخذهم الله بها. وبيَّن في مواضع أخرى أنَّ منهم قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب؛ وأنَّ ذنوبهم التي أخذهم بها هي الكفر بالله، وتكذيب الرسل وغير ذلك من المعاصي، كعقر ثمود للناقة، وكلواط قوم لوط، وكتطفيف قوم شعيب للمكيال والميزان، وغير ذلك كما جاء مفصَّلاً في آيات كثيرة.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنفال: ٥٣]

٨١٣. فيها أنَّ الأصل دوام النعم ما لم تزيلها الذنوب.قال ابن القيم / في الفوائد: (من الآفات الخفيَّة العامَّة أن يكون العبد في نعمة أنعم الله بها عليه واختارها له، فيملّها ويطلب الانتقال منها إلى ما يزعم لجهله أنَّه خير له منها، وربّه برحمته لا يخرجه من تلك النعمة، ويعذره بجهله وسوء اختياره لنفسه، حتى إذا ضاق ذرعاً بتلك النعمة وسخطها وتبرَّم بها واستحكم مله لها سلبه الله إياها . فإذا انتقل إلى ما طلبه ورأى التفاوت بين ما كان فيه وما صار إليه، اشتدَّ قلقه وندمه وطلب العودة إلى ما كان فيه، فإذا أراد الله بعبده خيراً ورشداً أشهده أنَّ ما هو فيه نعمة من نعمة عليه ورضاه به وأوزعه شكره عليه، فإذا حدَّثته نفسه بالانتقال عنه استخار ربَّه استخارة جاهل بمصلحته عاجز عنها، مفوِّض إلى الله، طالب منه حسن اختياره له. وليس على العبد أضرُّ من مله لنعم الله، فإنَّه لا يراها نعمة ولا يشكره عليها ولا يفرح بها، وليس على العبد أضر من مله.

٨١٤. فيها أنَّ النعم كلها من الله جل وعلا. وأنَّه الذي يغيّرها.

٨١٥. في الآية بيان لعدل الله ﷻ.

٨١٦. فيها أنَّ تعليل الأحكام لا ينافي كمال العلم والحكمة والعزة.. فالله تعالى مع غناه عن خلقه علل أحكامه القدرية والشرعية في مثل هذه الآية.

٨١٧. تفيد خطورة الفساد الاجتماعي فإنَّه يؤدي إلى العقوبة الجماعية، ومن هنا تأتي أهمية دور إنكار المنكرات في المجتمع، ولا يصحُّ ترك الناس لأهوائهم.

٨١٨. فيها إشارة إلى أهميَّة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنَّ تركه من أسباب هلاك الأمم؛ دلَّ عليه قوله ﴿...عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ...﴾ فإذا تُرك المنكر فلم ينكر على آحاد الناس حتى غلب على المجتمع عندها قد تقع النقم، وتتحول النعم.

٨١٩. فيها أنَّ صلاح المجتمعات والأمم لابد أنَّ يبدأ من صلاح الأفراد، وصلاح الفرد يبدأ من نفسه التي بين جنبيه.

٨٢٠. تذييل الآية يفيد علم الله بخفايا النفوس وخباياها، وما تغيَّر منها للأسوأ أو للأحسن فيجازي بعلمه وحكمته.

٨٢١. فيها الحث على سبر أغوار النفس وتعاهدها وإصلاحها والحرص على عدم تغيُّرها.

٨٢٢. فيها الحث على الثبات حتى الممات.

قال تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۗ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنفال: ٥٤]

٨٢٣. تفيد أنَّ القرآن الكريم كرَّر بعَّض الآيات والجمل لفائدة، وهذه الآية ليست بتكرير للأولى، لأنَّ المعنى في الأولى: العادة في التعذيب، أو العادة في فعل المشركين بنبيِّهم كالعادة في آل فرعون، وهذا الثاني المعنى فيه: العادة في التغيير من هؤلاء كعادة آل فرعون في ذلك، فأهلك من كان قبل فرعون بذنوبهم، وأغرق ﴿ءَالَ﴾ فرعون، والجميع كانوا ظالمين، فكذلك أهلك هؤلاء بالسيف ببدر، إذ غيّروا نعمة الله وهي الكفر بمحمد ﷺ... (ذكره مكي القيسي/)

٨٢٤. (المسألة الثالثة: أنَّه تعالى ذكر مرة أخرى قوله تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ وذكروا فيه وجوها كثيرة:

الأول: أنَّ الكلام الثاني يجري مجرى التفصيل للكلام الأول؛ لأنَّ الكلام الأول فيه ذكر أخذهم، وفي الثاني ذكر إغراقهم وذلك تفصيل.

والثاني: أنَّه أريد بالأول ما نزل بهم من العقوبة في حال الموت، وبالثاني ما ينزل بهم في القبر في الآخرة.

الثالث: أنَّ الكلام الأول هو قوله :﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، والكلام الثاني هو قوله :﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ فالأول إشارة إلى أنَّهم أنكروا الدلائل الإلهية، والثاني إشارة إلى أنَّه سبحانه ربَّاهم وأنعم عليهم بالوجوه الكثيرة، فأنكروا دلائل التربية والإحسان مع كثرتها وتواليها عليهم، فكان الأثر اللازم من الأول هو الأخذ، والأثر اللازم من الثاني هو الإهلاك والإغراق، وذلك يدلُّ على أنَّ لكفران النعمة أثراً عظيماً في حصول الهلاك والبوار).

فالذي يظهر – والعلم عند الله– أنَّ التكرار الحاصل في هاتين الآيتين له علاقة بالموضوع السابق وهو أحداث غزوة بدر؛ حيث إنَّ ما وقع لكفار قريش كان بسببين:

أحدهما: سبب إلهي من خلال تعديل كفَّة المعركة والمواجهة بين الفريقين.

وثانيهما: سبب بشري؛ وذلك من خلال تفاعل المسلمين واستجابتهم لأوامر الله تعالى في مواجهة المشركين وعدم الخوف منهم؛ حيث غيَّر الكارهون للمواجهة قناعتهم وأذعنوا لله تعالى ولرسوله ومضوا في قتال الأعداء متوكلين على الله؛ وأيقنوا كما أيقن موسى عليه السلام في مواجهة آل فرعون ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾؛ ومن هنا قد تظهر للمتدبر والمتأمل بعض الأسرار في توسيط آية التغيير بين الدأبين الأول والثاني؛ وكذلك ذكر الأخذ في الأول وذكر الاغراق في الثاني. وكذلك غيَّر كفار قريش هدفهم فهم خرجوا لحماية العير ولما نجا ابو سفيان كتب إليهم أن ارجعوا فإنَّما خرجتم للعير وقد سلمها الله) فرفض أبي جهل وغيَّر نيَّته الي القتال فكانت واقعة بدر.

٨٢٥. تفيد مع الموضوع الكلي للسورة أنَّ القيام بواجب الجهاد في سبيل الله من أعظم أبواب التغيير الإيجابي الذي قام به النبي ﷺ وأصحابه ويقوم به أتباعه إلى قيام الساعة؛ وأنَّ من أعظم

أبواب التغيير السلبي هو ترك الجهاد في سبيل الله؛ ويشهد لهذا حديث النبي ﷺ: (إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلاً لا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلاً لا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلا لا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ).وهنا تظهر للمتأمل والمتدبر دقَّة التناسب وروعة التناسق بين الآيات والوحدة الموضوعية في السورة.

٨٢٦. تفيد أن المشاركة في الظلم سبب للمشاركة في العذاب.

٨٢٧. تفيد الآية الحديث الذي أخرجه الزيلعي في تخريج الكشـــاف حيث قال: (ينادي مُنادٍ يومَ القيامَة أين الظَّلَمةُ وأتباعُ الظَّلَمَةِ وأعوانُ الظَّلَمةِ حتَّى من لاق لهمْ دواةً أو برى لهم قلمًا فيُجمعونَ في تابوتٍ واحدٍ فيُرمى به في جهنَّمَ) . إسناده حسن.

٨٢٨. فيها التأكيد على العدل الإلهي فكما ذكر في الآية السابقة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾. أكَّد ذلك في هذه الآية في موضعين ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ﴾ و﴿وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ فإهلاكهم وإغراقهم بسبب تكذيبهم وظلمهم.

٨٢٩. تفيد إثبات الأســـباب وربطها بمســـبباتها؛ فما أهلكهم الله إلَّا بما ظهر من ذنوبهم، مع علمه تعالى السابق بما كانوا يفعلون.

٨٣٠. العاقل من وعظ بغيره، والشـقي من اتعظ به غيره، أغرق الله آل فرعون بسـبب ذنوبهم، ونجّا فرعون ببدنه ليكون آية لمن خلفه، فالكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت.

٨٣١. تفيد بدلالة السياق أنَّ مبدأ تغيير النعم التكذيب بآيات الله، والمعاصي والذنوب، فَكانَ مَبْدَأُ تَغْيِيرِهِمْ أنَّهم: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: الَّذِي رَبّاهم بِالنِّعَمِ، فَصَـــرَفُوها إلى غَيْرِ ما خُلِقَتْ لَهُ بِمُقْتَضى تِلْكَ الآياتِ.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأنفال: ٥٥]

٨٣٢. إنَّ ركائز الإيمان في القلوب هي الغاية الكبرى للوجود الإنساني في هذه الحياة الدنيا.

٨٣٣. تفيد المرء حيث يجعل نفسه، فقد كرَّم الله ابن آدم وعلَّمه وأمر الملائكة بالسجود له وأمره بالإيمان به، فلما انسلخ منه صار من شرِّ الدوابِّ وذلك لتسخيره ما امتاز به من سائر خلقه في الفساد والافساد؛ لأنَّ الله أكرم الإنسان بنعمه العقل، فالكفار لما منحهم ورزقهم الله تعالى نعمه العقل فكفروا صاروا أحط وأسوأ وشر الدواب.

٨٣٤. تفيد: أنَّ مدار الخيرية على وجود الإيمان وعدمه؛ قال الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦-٧].

٨٣٥. تفيد: أنَّ الجزاء من جنس العمل؛ فإنَّهم لما جحدوا وغطُّوا أظهر وأيسر وأعظم حقيقة (الإيمان بالله) مع ما رُكِّب فيهم من الفهم، جزاهم بأن جعلهم شرَّ من دبَّ على الأرض على الإطلاق. وما ينتظرهم في الآخرة أشرّ مكاناً؛ قال الله: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٤].

٨٣٦. تفيد ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أنَّ مقياس الله يختلف من مقياس بعض الناس وخاصَّة ممن انطمست بصيرته فتراه يرى الكفار وأعوانهم أهل فهم وثقافة وعلم ويعجبه شأنهم بل ويحتقر المسلمين وأهل الله.

٨٣٧. تفيد: أنَّ العبرة بمقام العبد عند الله؛ لا عند غيره؛ لقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ وإلَّا فهم أخيار عند الزنادقة والمنافقين. ونحوها: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾؛ وإلَّا فبعضهم يرى الفاجر كريماً.

٨٣٨. ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تفيد علم الله المسبق بأنَّهم لم ولن يؤمنوا مستقبلا.

٨٣٩. فضيلة الإيمان بالله؛ ووجه الدلالة من مفهوم المخالفة، فلمَّا ذمَّ الكفَّار دلَّ على فضيلة أهل الإيمان.

٨٤٠. فيها أنَّ الإيمان بالله ﷻ وبما أنزل هو مقياس التفاضل الحقيقي.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٥٦]

٨٤١. فيها مع ما قبلها وما بعدها: أنَّ هؤلاء الذين جمعوا هذه الخصال الثلاث: الكفر، وعدم الإيمان، والخيانة، بحيث لا يثبتون على عهد عاهدوه ولا قول قالوه، هم شـــرّ الدوابِّ عند الله فهم شـــرٌّ من الحمير والكلاب وغيرها، لأنَّ الخير معدوم منهم، والشـــر متوقع فيهم، فإذهاب هؤلاء ومحقهم هو المتعين، لئلا يسري داؤهم لغيرهم، ولهذا قال: ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ﴾. (مستفاد من السعدي / بتصرف).

٨٤٢. دلَّت على أنَّ شـرَّ الدوابِّ نقَّاض العهود، أي الذين أصـبح نقض العهد لهم عادة كما أنَّ الوفـاء بالعهـد من عـادة المســلمين وفي الحـديـث: (أَدِّ الأمـانـةَ إلى مَنِ ائتَمنـك؛ ولا تَخُنْ مَن خانك).

٨٤٣. فيها بالمفهوم أنَّ الوفاء بالعهد من تقوى الله ﷻ؛ لقوله: ﴿وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

٨٤٤. تفيد صيغة المضارع "يَنْقُضُونَ " الحال والاستقبال، للدلالة على تعدد النقض وتجدده، وأنَّهم على نيَّته في كل مرة يعاهدون فيها غيرهم.

٨٤٥. فيها دلالة على أنَّ المؤمن يعامل الناس بظاهرهم.. ولهذا يعاهدون كل مرة فيقبل منهم المؤمنون.

٨٤٦. الآية تربِّي على الحذر ممن عادته الخيانة.

٨٤٧. الآية تدلُّ على أنَّ المؤمن لن يخسر بالعهد ما لم ينقضه.

٨٤٨. نقض العهود والمواثيق أكثر من مرة دليل على عدم التقوى، بل والإصـــرار على ذلك؛ ولذلك من صفات المنافقين نقض العهود.

٨٤٩. تفيد أنَّ الإسلام كان ولا زال دين السلام والسلم بالدرجة الأولى؛ وأنَّ نبي الإسلام لم يكن يوماً داعية حرب أو مواجهات مسلَّحة مع الآخرين؛ ولم يكن متعطِّشاً للدماء-كما يصفه

بعض أعدائه-؛ ولا ساعياً إلى نشر دينه بقوة السلاح؛ ولا راغباً في إنشاء إمبراطورية تلغي حق الآخرين الراغبين في العيش بسلام ووئام جنباً إلى جنب؛ وذلك من خلال الدخول في معاهدات ومواثيق مع جيرانه ومع مريدي السلام من الأديان الأخرى.

٨٥٠. تفيد محبة النبي ﷺ للسلام والوئام؛ وسعة صدره على المخالف وقوة تحمُّله وصبره على من يخل بشيء من تعهداته ومواثيقه؛ ﴿يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ﴾.

٨٥١. تفيد أنَّ قرار الدخول في الحرب والسلم والمعاهدات والمواثيق مع الآخرين يجب أن يمر من خلال ولي أمر المسلمين؛ لكونه الأعلم بمصالحهم؛ وأنَّ قراراته تلك نافذة ويجب أنَّ يلتزم بها الرعيَّة جميعهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ﴾. ولم يقل: (عاهدتم منهم).

٨٥٢. تفيد أنَّه ينبغي الدخول في مواثيق وعهود مع أقوام لديهم إمَّا قيم تمنعهم؛ أو مخافة رب ترهبهم؛ أو قوة تردعهم.

٨٥٣. تفيد أنَّ تكرار الأخطاء الجسيمة والفظيعة يدلُّ على عدم المبالاة والاستخفاف بالآخرين.

قال تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال: ٥٧]

٨٥٤. تفيد مناسبة ظاهرة لما قبلها فبعد أن ذكر ـــ الذين ينقضون عهدهم في كل مرة، بيَّن وأرشد في هذه الآية إلى الطريقة التي ينبغي أن يعاملوا به فقال تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ﴾.

الثقف: لا يسمى ثقفاً إلا إذا فيه انتصار وإمساك بالمطلوب، فعلى هذا: فالآية تأمر بالإمساك بالناقض عهده والتنكيل به.

٨٥٥. في التعبير بـ " تثقفنهم" إشارة إلى تجدّد المتربصين بالدين وأهله، وأنَّ وجودهم في كلِّ زمان ومكان سنة إلهية؛ ليختبر الله بها ثبات المؤمنين.

٨٥٦. دلَّت على أنَّ الشدة في موضعها عبودية.. (فالرحيم يأمر بالتنكيل).

٨٥٧. فيها فقه التعامل مع كل حال بحسبها فمن قاتل (يثقف) ومن دعمه وكان خلفه (يشرد) وهذا من العدل والحكمة.. أن يعامل كل بما يستحق.

٨٥٨. تفيد مع ما قبلها أنَّ التغاضي عن بعض التصرُّفات الخاطئة والمتكررة من الأعداء – وخصوصاً تلك التي تمس سيادة الدولة وكرامتها وهيبتها– قد يجرِّئ الآخرين إلى سلوك نفس الطريق، ولهذا لا بد لقائد الأمَّة أن يتخذ خطوات تصعيدية وحاسمة لمواجهة هذه التصرفات الخاطئة وإعادة هيبة الدولة وسيادتها وكرامتها، حتى لا يتجرأ أحد على التطاول وسلوك هذا الطريق الخاطئ، وتكون عبرة لغيرهم ممن تسول له نفسه المساس بسيادة الدولة وكرامتها. قال الألوسي: شروع في بيان أحكامهم بعد تفصيل أحوالهم، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، والثقف يطلق على المصادفة وعلى الظفر، والمراد به هنا المترتب على المصادفة والملاقاة.

٨٥٩. فيها: قوة التعبير، وتلميح بما يفترض أن يكون عليه المجاهدون أثناء الحرب؛ من اليقظة وقوة الإبصار؛ وليخطفوا هؤلاء الناقضين خطفا ولا يفلتوهم. وتأمَّل اختيار الكلمة، ومجيء نون التوكيد فيها: ﴿تَثۡقَفَنَّهُمۡ﴾!؛ يقال: رجل ثقف لقف، للرجل يبصر مواضع الضرب في القتال. ويقال أيضا: وثقفت الرجل إذا ظفرت به.

٨٦٠. فيها: ثمرة من ثمرات الجهاد؛ وهي: كفّ الكفار عن المسلمين؛ ﴿فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ﴾. وكما قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

٨٦١. فيها إشارة إلى سنة من سنن الله في الكون، في تقلُّب أحوال الدول بين سلم وحرب، وكذا تقلُّب أحوال البشر والأمم، فلا شيء يدوم على حاله، فلابد من الاستعداد النفسي والعملي لكل حالٍ بما يناسبه.

٨٦٢. تفيد أنَّ الإسلام دينٌ للسلم وللحرب، صالحٌ لكل زمان ومكان، وعلى من أراد الانتصار والقوة أن يسير على خطاه ويتَّبع أوامره في السلم والحرب.

٨٦٣. تدلُّ الآية على إعداد الخطط في الحروب، واتخاذ الطرق الوقائية والدفاعية في جميع الحالات التي يخطط لها الإنسان في حياته.

٨٦٤. فيها أنَّ الاعداء فئة ظاهرة، وفئة مستترة فلنحسب لها حسابها ونضعها في الاعتبار عند إعداد الخطط والسياسات.

٨٦٥. فيها أنَّه يمكن اتخاذ الوسائل التي ترهب الأعداء كمثل ما يسمي اليوم بالاستعراض العسكري ونحوه.

٨٦٦. التصرف في أيِّ موقف لابد أن يكون بالنظر للاعتبارات المحيطة به، ولذلك يأخذ الإسلام بالرحمة تارة والتنكيل بالعدو تارة أخرى، وهذا أمر يفيد المربّين والمعلمين والقادة.

٨٦٧. -تدلُّ الآية على فطنة أهل الإسلام، لأنَّهم يسيرون على بصيرة، ولأنَّ جميع تصرُّفاتهم في السلم والحرب تعتمد على أسس من الدين.

٨٦٨. تفيد: أنَّ الباطل هش؛ مهما اجتمع عليه أهله؛ فإنَّهم يتصدعون إذا نزل بساحتهم خيل الله؛ لقوله: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم﴾. وفي الحديث: "إنا إذا نزلنا بساحة قوم ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾". قالها ثلاثا. متفق عليه.

٨٦٩. فيها: ردٌّ على من تناول الدين من منظور واحد فحسب؛ فلا يعرف عنه إلا اللين والموادعة؛ قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[التوبة: ٧٣]. وقد قيل: ووضع الندى في موضع السيف بالعلى مضر كوضع السيف في موضع الندى

٨٧٠. في الأمر بِالإغلاظ عَلى العَدوِّ مصلحتان: إرْهاب للعدو، ورَحمة لغيرهم؛ لِأنَّهُ يَصُدُّ أمثالهم عَن النَّكث، ويَكفي المؤمنين شرَّ النّاكِثين الخائنين.

٨٧١. يفيد قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أنَّ من فوائد العقوبات والحدود المترتبة على المعاصي أنَّها سبب لزجر من لم يعمل المعاصي، بل وزجراً لمن عملها أن لا يعاودها.

قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٨]

٨٧٢. فيها أنَّ الخوف من غير الله ليس وصف ذم مطلق؛ بل إنَّ الخوف المسبَّب الذي يدفع لعمل ما يدفعه أو يرفعه هو من تمام العقل والحكمة.

٨٧٣. فيها: ضرورة معرفة السمات الشخصية والمجتمعية لمن ينوي الإمام معاهدتهم حتى لا يقع في فخ خيانتهم.

٨٧٤. تعظيم شأن العهود والوفاء بها أشار إلى هذا أمر الله نبيَّه أن ينبذ إليهم عهدهم على بياض الحقيقة دون شبهة نقض للعهد أو تهمة به.

٨٧٥. النبذ هو إلقاء الشيء مستهيناً به.. فعلى هذا: الآية فيها تربية على العزَّة؛ فمن لا يفي بعهده لا نريده.. الخائن عقوبته مُعَجَّلة، فهو لا يحبُّه الله، وتكون عقوبته بإذلاله وإهانته.

٨٧٦. يفيد مضارع ﴿تَخَافَنَّ﴾ الاستمرار؛ وعلى هذا فالآية تفيد: استمرار الحذر ومعرفة حال الأعداء.

٨٧٧. قوله ﴿مِن قَوْمٍ﴾ وتقديمها على المفعول ﴿خِيَانَةً﴾ للدلالة على أنَّ عهود الحروب ليست لازمة للمؤمنين؛ فإن أردنا الوفاء وإلا نبذنا العهد وأعلمناهم.قالَ ابْنُ عَطِيَّةَ /: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ تَعْلِيلٌ لِما قَبْلَها، يُحْتَمَلُ أنْ تَكُونَ تَحْذِيرًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنِ المُناجَزَةِ قَبْلَ أنْ يَنْبِذَ إلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ، ويُحْتَمَلُ أنْ تَكُونَ للقَوْمِ الَّذِينَ تُخافُ مِنهُمُ الخِيانَةُ.

٨٧٨. تدلُّ الآية على نزاهة الشريعة الإسلامية في السلم والحرب حيث أُمر المسلمون بإخبار أعدائهم بنبذ العهد قبل حربهم.

٨٧٩. إعلام الطرف الآخر بنقض عهده إذا صدر منه ما يوجب ذلك؛ لئلا يعتقد أنَّ الخيانة منك. مستفاد من قوله: ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾. وقوله: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ .

٨٨٠. جواز فسخ العهد لأسباب ودواعي ومصلحة شرعية، مع وجود أمارات لنقض العهد من جهة العدو.

٨٨١. على المرء ألَّا يستمر في الأمر الذي لا فائدة تُرتجى منه، أو يُخشى ضرره ويؤخذ ذلك من الأمر بعدم الاستمرار في العهد إن خِيف منه الضرر.

٨٨٢. أنَّ الخيانة تكون بالقول أو بالفعل.

٨٨٣. فيها دليل على العمل بغلبة الظن﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ﴾ إشارَةً إلى ظُهُورِ القَرائِنِ ووُضُوحِ الأماراتِ.

٨٨٤. تدلُّ نون التوكيد ﴿تَخَافَنَّ﴾ على أنَّ الخوف ينبغي أن يكون معه (قرائن) ولهذا لم يقل: (وإما تخاف).

٨٨٥. فيها: ذكاء المؤمن وفطنته؛ فالخوف لا يعتبر إلا إذا كان له ما يؤيِّده.. فلا تمرُّ الحيل على المؤمن.

٨٨٦. الحث على تفعيل النظرة الشمولية للأمور وعدم الاقتصار على جهة دون الأخرى، ويؤخذ ذلك من ملاحظة أمارات الخيانة لا انتظار حدوثها بالقول أو الفعل الصريح.

٨٨٧. يفيد ترتيب نبذ العهد على خوف الخيانة دون وقوعها دلالة واضحة على أنَّ شؤون المعاملات السياسة والحربية تجري على حسب الظنون ومخائل الأحوال؛ ولا ينتظر وقوع الأمر المظنون؛ لأنَّ في ذلك تعريض الأمَّة للخطر أو تضييع مصلحة عامة للأمَّة.

٨٨٨. تدلُّ الآية على أنَّ شأن الحرب له فقهه الخاص؛ ففيه يعمل بالخوف والظنون.. لقوله ﴿تَخَافَنَّ﴾.

٨٨٩. في الآية دلالة على أنَّ تَخَيُّلُ الضُّرِّ بِدُونِ أمارَةٍ لا يسيغ طرح العهد ونبذه، فإنَّ ذلك ليس خوفاً حقيقياً، إنَّما هو هوس وتوهّم يثير البلبلة في صفوف المسلمين واضطرابها.

٨٩٠. ودلَّ مفهوم الآية أنَّه إذا لم يُخَفْ منهم خيانة، بأن لم يوجد منهم ما يدلُّ على ذلك، أنَّه لا يجوز نبذ العهد إليهم، بل يجب الوفاء إلى أن تتم مدته.

٨٩١. في إلقاء السلم والإشعار بالحرب إشعار بقوة المسلمين وعزّتهم وحرّيّتهم في اتخاذ القرارات بما يتناسب مع مصلحة دينهم.

٨٩٢. في الآية دلالة على أنَّ الجزاء من جنس العمل. لأنَّ الكفار يريدون نبذ العهد بالخيانة، فقوبل ذلك بنبذ عهدهم بقتالهم. وهو مستفاد من نفيه حبه للخائنين، ومفهوم المخالفة أنَّه يحب المحافظين على العهد.

٨٩٣. يفيد توجيه الخطاب إلى النبي ﷺ وليس إلى عموم الأمَّة دلالة واضحة على أنَّ قضايا السلم والحرب من الأمور التي يرجع فيها إلى ولي الأمر أو من ينيبه؛ ولا يجوز بحال من الأحوال أن يتدخل أحد من الأمَّة سواء كان فرداً أو جماعة في هذا الشأن.

٨٩٤. ﴿فَإِمَّا...وَإِمَّا﴾ فيها فائدة تعليمية تربوية وهي: تعليم العباد كيفية وضع الحلول والاقتراحات لجميع المشاكل المتوقَّعة، ووضع جميع الاحتمالات في الحسبان، واقتراح طرقٍ لمعالجتها.

٨٩٥. وأيضا مهارة قيادية وهو ما يعرف ببدائل القرارت، والحلول والسيناريو (أ) و(ب)؛ وعادة ما يرتبط بالقرارات القيادية الحاسمة، يؤيده قوله تعالى عن نبيّه سليمان عليه السلام: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ۝ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾.

٨٩٦. في الآية توجيه إلهي، وتربية للقائد والداعية المسلم على أخذ الحيطة، والحذر، وإعلاء الحس الأمني لديه؛ خشية أن يصاب هو ودعوته في مقتل ممن يتربص بهم الدوائر.

٨٩٧. ولما كانت معرفة الخائنين تحتاج إلى العلم بهم، وبخططهم؛ فقد يكون في الآية تأصيل للمفهوم الحديث الذي يعرف بالاستخبارات، لمعرفة المتربصين بالإسلام والمسلمين شراً لاتقاء شرّهم؛ أو لأجل تحقيق انتصار عليهم، يؤيّده إرساله ﷺ للعيون في غزوة بدر وغيرها.

٨٩٨. وجوب ابتعاد المسلم عن إبرام عهد وميثاق مع من ديدنه الخيانة. ووجهه: أنَّه سبحانه أمر بنبذ عهد من خيف منه الخيانة، فالذي ديدنه الخيانة فلا عهد له ولا معه؛ لكونها خصلة فيه.

٨٩٩. فيها: إشارة إلى: أنَّ الله ينصر ويؤيِّد من غُدر به. وأنَّ الله يسلِّط على من ينقض العهد؛ وإنَّما أمر بإعلامهم حتى إذا وصل إليهم وتمكَّن منهم، لا يكون غدراً؛ وتصديقه: لما غدرت قريش ونقضت العهد المبرم بينهم وبين رسول الله ﷺ (بعدم تعرُّضهم لخزاعة التي دخلت في حلف النبي)؛ قال رسول الله ﷺ لعمرو: "نصرت يا عمرو بن سالم". فسلَّط الله نبيَّه وأصحابه على قريش، فكان الفتح.

٩٠٠. في نفي محبة الله للخائنين توجيهات ربانية للمؤمنين:

- منها عدم اتصافهم بهذه الصفة الذميمة.
- ومنها الحذر من الخائنين، ومن توليتهم شؤون المؤمنين ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾.
- ومنها تمحيص القادة لمعرفة الأمناء منهم والخائنين.
- ومنها عمل المصلحين، والمربين على إشاعة خلق الأمانة في المجتمع، وتعظيم شأنها، وتربية الأجيال عليها.

٩٠١. فيها تربية للمؤمن على الشجاعة الحقَّة التي لا غدر فيها، ولا نقض للعهود في حال الحرب أو السلم. فأمَّا الشجاعة في حال الحرب كما دلَّت الآية تكون بإخبار العدو بنبذ عهده ببيان واضح لا لبس فيه. وأمَّا في حال السلم فتعم الشجاعة سائر شؤون الحياة التي تتطلب أمانة، وشفافية في أداء الواجبات وأخذ الحقوق كالوفاء بمتطلبات عقد العمل، وعدم الإخلال بشيء من بنوده دون إخطار ربِّ العمل بذلك مسبقاً ببيان واضح لا لبس فيه.

٩٠٢. يدلُّ على هذا الحس والشعور الأمني والعسكري ما جاء في الأحاديث؛ عن أنس رضي الله عنه قال: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ وَأَجْوَدَ النَّاسِ وَأَشْجَعَ النَّاسِ وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَانْطَلَقَ النَّاسُ قِبَلَ الصَّوْتِ فَاسْتَقْبَلَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ سَبَقَ النَّاسَ إِلَى الصَّوْتِ وَهُوَ يَقُولُ لَنْ تُرَاعُوا لَنْ تُرَاعُوا).

٩٠٣. فيها ذم الخيانة والخائنين، وهي من صفات المنافقين.

٩٠٤. فيها إشارة إلى أنَّ أعظم الخيانة ما يكون بين الراعي والرعيَّة من تضييع أمر الدين.

٩٠٥. ثبوت صفة الحب لله جل وعلا على ما يليق بجلاله.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ [الأنفال: ٥٩]

٩٠٦. تفيد دقَّة التناسب وروعة التناسق مع ما قبلها، فبعد أن ذكر الله - نقض الكافرين للعهود والمواثيق وأمر نبيَّه بالتنكيل بهم والتشديد عليهم وتخويف مَن وراءهم من الكفار الراغبين في نقض العهود، وأمره كذلك بنبذ عهود من ظهرت منهم أمارات الخيانة وآثارها، عقَّب ذلك بالإشارة إلى أنَّ تلك الأوامر ما هي إلا بعضاً ممَّا يوقعه الله تعالى بتسليط المؤمنين عليهم، وأنَّه - باستطاعته أن يهلك هؤلاء الكفار بهلاك من عنده فهم لا يعجزونه، وفي ذلك إشارة ضمنية إلى مشركي قريش ممن خلص من أيدي المؤمنين وهرب بنفي قدرتهم على المقاومة والمقابلة بأيّ حال من الأحوال، وأنَّه سبحانه سيمكِّن المؤمنين منهم إن عاجلا أو آجلا.

٩٠٧. فيها طمأنة للمؤمنين أنَّ النصر آت من رب العالمين.

٩٠٨. إثبات عجز الكافرين وتخلفهم على مرِّ العصور، وهذا يزيد يقين المؤمن بدينه، ويؤكِّد له ضعف عدوه مهما أظهر من قوته.

٩٠٩. -على قراءة (تحسبن) (يحسبن) تظهر فائدة الإعلام بعجز الكفار لكلا الفريقين: فهي إحباط وتدمير لنفسية كل كافر، وتعزيز معنويات المؤمنين.

٩١٠. يعلِّم الله عباده طريقة من طرق مهاجمة العدو وهي (الحرب المعنوية) وتحطيم نفسية الخصوم، ويضاهي ذلك الحرب الإعلامية وغيرها من أنواع الحروب.

٩١١. عدم الاغترار بما عند الكفار من التقدم الدنيوي؛ لأنَّه متاع قليل ثم مأواهم جهنم. ووجهه: قراءة "ولا تحسبن" بالخطاب.

٩١٢. فيها أنَّ السبق إنَّما هو بالإيمان والعمل الصالح الخالص للربِّ المنَّان.

٩١٣. فيها إشارة إلى ترك وصف بلاد الكفار بالمتقدمة، مهما بلغ شأنهم وعلا كعبهم، وإنما هو في الحقيقة ظهور ببعض متاع الحياة الدنيا.

٩١٤. فيها إشارة إلى أنَّ من تولَّاه الله فهو المنتصر ومن عاداه فلا ناصر له.

٩١٥. من أمراض الكافر: الحسبان (الباطل) وهذا هو (الغرور) المذكور في القرآن.

٩١٦. تفيد أنَّ كل الأمور بيد الله سبحانه، مما يزيد إيمان المؤمنين بموعود الله بالنصر، وهذا من لطف الله بالمؤمنين، وكذلك من تجبُّره جل شأنه بالكافرين المناوئين لله ولرسوله.

٩١٧. فيها بيان حكمة الله البالغة في إمهال الكافرين وعدم معاجلتهم بالعقوبة، التي من جملتها ابتلاء عباده المؤمنين وامتحانهم، وتزودهم من طاعته ومراضيه ما يصلون به المنازل العالية، واتصافهم بأخلاق وصفات لم يكونوا بغيره بالغيها.

٩١٨. -قَوْلُهُ تَعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ فيه نَفْيٌ لِقدرتهمْ عَلى المقاوَمَةِ والمقابَلَةِ عَلى أبْلَغِ وجْهٍ وآكَدِهِ كَما أُشِيرَ إلَيْهِ.

٩١٩. أنَّ الحكمة من فتح أبواب كل شيء للكفار من زهرة الحياة الدنيا هي: ليزدادوا إثماً، ثم مآلهم العذاب كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ وقوله: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾، ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ...﴾. وقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾. وقد أجمله هنا بقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾. وهذا مستفاد من مجموع الأدلة.

٩٢٠. تسلية المسلمين لئلا ييأسوا من التغلُّب على الكفار بسبب ما آتاهم الله من الإمكانيات في العصر الحاضر؛ ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾.

٩٢١. ضرورة قيام الداعية بدفع الشبهات التي قد تحول بين المدعوّين وبين الاستجابة. ووجهه: أنَّ الله دفع الظن السيء الذي قد يقع فيه الكفار، ويصدهم عن سبيل الله، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ...﴾ وبيَّن عاقبته الوخيمة. وهذا أسلوب تكرر في القرآن كثيرا كما تقدم.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ

وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٠]

٩٢٢. تفيد دقَّة التناسب وروعة التناسق مع ما قبلها؛ فهذه الآية بالنسبة إلى ما تقدمها من باب: اعقلها وتوكل.

٩٢٣. تفيد مع ما قبلها من أحداث غزوة بدر إشارة لطيفة إلى بيان الخطأ العسكري الذي حدث من المؤمنين في غزوة بدر، حيث لم يستعدوا جيداً لكل الاحتمالات التي يمكن أن تقع بصدد مواجهة عدوهم.قال الرازي /: (لما اتفق أصحاب النبي ﷺ في قصة بدر أن قصدوا الكفار بلا آلة ولا عدَّة أمرهم الله أن لا يعودوا لمثله وأن يعدُّوا للكفار ما يمكنهم من آلة وعدة وقوة).

٩٢٤. تفيد مع ما قبلها أهمية الاستعداد لكل السيناريوهات المحتملة تجاه الأعداء سواء كان ذلك في السلم أو في الحرب، وسواء كانت بين المؤمنين وبين أعدائهم معاهدات ومواثيق أم لم تكن.

٩٢٥. فيها: تحفيز الدولة المسلمة على أن تصنع عدَّة الحرب بنفسها. ولأنَّ ما يصنعه العدو، قد لا يرهبه لما له عنده من مضاد – مثلا. وهذا ظاهر ومعروف. وهذا توجيه استراتيجي فما دمنا نستورد السلاح من الأعداء فنحن في ضعف، ومن القوة أن تصنع سلاحك بنفسك وتحيطه بالسرية زيادة في إرهاب العدو فلا يعلم ما عندنا من أنواع السلاح، ولذلك تحيط الدول الأسلحة الخطيرة كالأسلحة النووية والبيولوجية بستار عظيم من السريَّة وتحرص ألَّا يعلم غيرهم بحجمه ولا طرائق صنعه.

٩٢٦. تفيد أهمية تنوع الإعداد الحربي بكل الصورة المحتملة، قال السعدي / : ﴿مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ ﴾كل ما تقدرون عليه من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة ونحو ذلك مما يعين على قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات، والبنادق، والطيارات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والحصون والقلاع والخنادق،

وآلات الدفاع، والرأْي: والسياسة التي بها يتقدم المسلمون ويندفع عنهم به شر أعدائهم، وتَعَلُّم الرَّمْيِ، والشـــجاعة والتدبير. ولهذا قال النبي ﷺ: (ألا إنَّ القوة الرَّمْيُ) ومن ذلك: الاســـتعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء، والحكم يدور مع علته. فإذا كان شيء موجود أكثر إرهابا منها، كالسيارات الخ...

٩٢٧. تفيد بيان لطف الله تعالى ورحمته على عباده المؤمنين، وأنَّه لم يكلفهم إلا ما يطيقون لقوله تعالى: ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾. في جهاد أعداء الله وأعداء دينه.

٩٢٨. فيها أنَّ الواجبات الشرعية منوطة بالاستطاعة.

٩٢٩. تفيد: أنَّه لا عذر للأمة في ترك الإعداد؛ لقوله: ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾. وهذا أيضـــا من بلاغة القرآن.

٩٣٠. تفيد أنَّ الأخذ بالأسباب من التوكُّل وإن قلَّت ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾، وإن ضعف فاعل السبب ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾، ولا يعلق عليها تحقيق المطلوب بل بالتوكُّل على من أمر بالأسباب؛ لأنَّ التوكُّل هو السلاح الذي لا يملكه ولا يعرفه العدو.

٩٣١. تفيد الآية: التنبيه على فضـــيلة الخيل بين الحيوانات، وأنَّها من أســـباب عزَّة الأمَّة الإسلامية، ولذلك تكرر ذكرها في القرآن الكريم مع وصفها بأحسن الصفات وأكرمها، سواء في الحرب أو غيره، كوصفها بالصَّافنات الجياد، والعاديات ضبحا، فالموريات قدحا، وغير ذلك.

٩٣٢. سبق القرآن في ذكر الخيل من دون سائر الحيوانات رمزاً ومقياساً للقوة العالمية، ولا زال هذا المقياس معتبراً في وقتنا الحالي وفي جميع الآلات والمعدَّات والمحركات الحديثة فيقولون (قوة المحرك الفلاني تعادل: ٥٠٠ حصان).

٩٣٣. تفيد الآية الأمر باتخاذ الأسباب بعد التوكُّل على الله، ولا يعني ذلك أنَّ الله لا يقدر على نصر أوليائه بدون سبب، وإنَّما جعلها سنَّة الحياة الدنيا، كالطعام لأجل الحياة، والعلاج لأجل الشفاء وغير ذلك.

٩٣٤. يجب النظر لاعتبار (القوة) في الإعداد، فلا عبرة لما هو ضعيف ولبعض الإعدادات التي لا تفيد صاحبها شيئًا ولا تدخل تحت مسمَّى القوة.

٩٣٥. الحثُّ على طلب العلوم العصرية التي تمكِّن المسلمين من إعداد القُوَى المناسبة للعصر الحاضر؛ لتحقيق إرهاب العدو المنشود. "فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب". "والوسائل لها حكم المقاصد".

٩٣٦. إعداد القوة المناسبة لإرهاب العدو من خصوصيات ولي الأمر، ومن يأذن له من الولاة تحته، وليس لأفراد الرعية. ووجهه: أنَّ السياق في توجيه النبي ﷺ ومن تحته، ومثله الولاة من بعده.

٩٣٧. لا تبحث عن الأعداء، فقط أعد القوة والعدة لكل أحد.

٩٣٨. القوة لغة عالمية، فحتى تُحترم فلا بد أن تمتلك القوة.

٩٣٩. -﴿لَهُم﴾ الحث على تحديد الوجهة والمقصد في الإعداد، وفي التجهيز عمومًا، لأن ذلك أدعى لمناسبة الإعداد مع المعدّ له.

٩٤٠. بعض الأشياء في امتلاكها عزة ورهبة ومنعة ﴿رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾، وفي هذا حثٌّ على امتلاك ما يفيد، وعدم وضع المال فيما لا نفع فيه.

٩٤١. تفيد وضوح مفهوم الإرهاب في النصوص القرآنية وعموم الشريعة الإسلامية؛ لقوله تعالى: ﴿تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾. حيث لم يكتف النص القرآني بـ ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ﴾ بل أضاف إليه ﴿وَعَدُوَّكُمۡ﴾؛ مما يعني أنَّ العدو المتربص للمسلمين ينبغي إرهابه ليأمن المسلمون من شره وخطره.

٩٤٢. تفيد أنَّ المفهوم القرآني للإرهاب هو أصحّ وأوضح مفهوم للإرهاب؛ ولهذا لم تتفق الدول ولا الهيئات والمنظمات العالمية على مفهوم أصح وأوضح من المفهوم القرآني لهذه اللفظة. ولهذا كان من الخطأ والافتراء وصم الإسلام بأنَّه دين إرهاب؛ لكون لفظة الإرهاب وردت في نصوصه.

٩٤٣. تفيد مع ما قبلها وما بعدها أنَّ من أعظم الأسباب والعوامل للحفاظ على السلم والأمن بين الشعوب والدول هو وجود القوة المتوازنة بين الفرقاء والخصوم حتى لا يبغى أحد على أحد؛ ولا يعتدي أحد على أحد؛ ويعيش الجميع في سلم وأمان؛ ولهذا فإنَّ الله ﷻ نصَّ في هذه الآية على لفظة ﴿تُرْهِبُونَ﴾ ولم يقل: (تحاربون) ما يعني أنَّ مفهوم الإسلام للإرهاب أعمُّ من مفهوم الحرب والقتال؛ وذلك لأنَّ لفظة الإرهاب جاءت في سياق السلم ووجود العهود والمواثيق بين الخصوم والفرقاء؛ وبالتالي فإنَّ الإرهاب الإسلامي ليس موجَّهاً للقتال وإقامة الحروب بقدر ما هو إقامة للسلم والأمن بين الفرقاء والخصوم؛ ولهذا قال تعالى بعد هذه الآية : ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾فالمفهوم الإسلامي للإرهاب مفهوم متوازن ونبيل؛ سامي الأهداف وعميق المقاصد؛ إذ إنَّه يسعى وفي ظل توفُّر القوة، وكذلك السلم والأمن الداخلي؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾.

٩٤٤. ومن خلال هذه الهداية وهذا الاستنباط يمكن الرد على كثير من الشبهات التي تثار حول هذه القضية والتي يسعى الأعداء من خلالها إلى تشويه صورة الإسلام الناصعة؛ ومن ذلك: شبهة: أنَّ الدين الإسلامي إنَّما انتشر بحدِّ السيف والقمع والإرهاب؛ وأنَّه إنَّما جاء ليستأصل حق أتباع الأديان الأخرى في الوجود، وأنَّه أعمل في ذلك السيف الظالم، وهذا كله افتراء محض تُكذِّبه الدلالات الصحيحة لنصوص الكتاب والسنة؛ ووقائع السيرة النبوية العطرة، التي أَمرت بالبر والقسط والرحمة بالجميع، وعدم الإكراه في الدين.

٩٤٥. ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ فيها إلهابٌ لمشاعر المؤمنين، وتحريض لهم على الإعداد، وبيانٌ للدافع والعلَّة في حربهم وهي: عداوتهم لله ولدينه ولعباده المؤمنين.

٩٤٦. ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ لا يُشترط الإحاطة بكل شيء للإعداد، يكفي بذل الأسباب.

٩٤٧. خطورة العدو الداخلي الذي لا تعلمه بعينه، والحث على الاحتياط لدفع شره.

٩٤٨. فيها: إثبات العلم لله؛ لقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٩٤٩. فيها اختصاص الله – بعلم الغيب وأنَّ الأنبياء فمن دونهم لا يعلمون الغيب؛ لقوله: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

٩٥٠. مهما حاولت حصر أعدائك فهناك أعداء لا يمكن أن تعلمهم فكن على حذر دائم. وهذا منهج عظيم في تربية أهل الإيمان وإعدادهم، لا بد من الحذر الدائم. ومن غفل فسرعان ما يتسلط عليه الأعداء.

٩٥١. تفيد: أنَّ المنافقين أعداء الله؛ وإن تظاهروا بخلاف ذلك؛ لقوله: ﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾، أي: وترهبون آخرين لا تعلمونهم؛ يعني: المنافقين؛ قال الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

٩٥٢. تفيد أنَّ الأصل في المسلمين مع الكفار السلم، والجهاد مشروع لتحقيق مقاصد شرعية معلومة. ويدلُّ على هذا عموم الأدلة، منها: الآية ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ ...﴾ فلا يتجرؤون عليكم، فيندفع شرهم. وكذلك قوله بعدها: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ...﴾. ومنها قوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾. أمَّا جهاد الطلب فلا يكون إلَّا بعد دعوة إلى الإسلام بالسلم، ثم دفع جزية...إلخ، كما في حديث سليمان بن بريدة عن أبيه في صحيح مسلم.

٩٥٣. فيها هذا ردٌّ على المستشرقين المشوِّهين لصورة الإسلام في هذا الباب.

٩٥٤. يفيد أنَّ إعداد القوة في جميع المجالات لمواجهة الأعداء تتطلب نفقات باهظة ومصاريف مادية كبيرة؛ ولهذا حث - في خاتمة هذه الآية عباده المؤمنين بالتضامن والتكاتف والمساهمة في الإنفاق لتغطية هذه المصاريف بقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ...﴾. ومن هنا يظهر للمتأمل والمتدبر دقة التناسب وروعة التناسق بين فاتحة الآية وخاتمتها.

٩٥٥. فيها: جمال التذييل وبلاغته؛ لقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾؛ لأنَّ هذا الإعداد، لا بد له من مال يبذل. وفي الحديث: "من جهز جيش العسرة، فله الجنة". رواه البخاري.

٩٥٦. فيها: أنَّه لا تكليف إلا يُستطاع ويقدر عليه؛ قال الله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، ﴿إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾. ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٩٥٧. تفيد: أنَّ الأصل في إعداد السلاح، أن يكون للكفار أعداء الله؛ لا لغيرهم من أهل الإسلام؛ لقوله: ﴿لَهُمْ﴾.

٩٥٨. فيها إشارة إلى: شح النفس البشرية؛ ولذا طمأنها باريها والعالم بها – سبحانه – بقوله: ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾. ولأنَّ النفس تنفق رجاء النفع والاستفادة. ففيها: أنَّ الله لطيف بعباده.

٩٥٩. فيها الجهاد بالمال هو من أعظم الجهاد؛ قال السعدي/: ومن أعظم ما يعين على قتالهم بذلك النفقات المالية في جهاد الكفار. ولهذا قال تعالى مرغِّبًا في ذلك: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قليلا كان أو كثيرًا، ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أجره يوم القيامة مضاعفًا أضعافًا كثيرة، حتى إنَّ النفقة في سبيل الله تضاعف إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي: لا تنقصون من أجرها وثوابها شيئًا.

٩٦٠. فيها الحث على الإخلاص في الإنفاق والجهاد وهما ممَّا يحصل فيه الرياء كثيراً.

٩٦١. فيها فضل الله ﷻ وسعة عطائه وجوده وكرمه؛ لقوله: ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾. قال ابن كثير/: أي: مهما أنفقتم في الجهاد، فإنَّه يوفَّى إليكم على التمام والكمال، ولهذا جاء في حديث رواه أبو داود: أنَّ الدرهم يضاعف ثوابه في سبيل الله إلى سبعمائة ضعف كما تقدم في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]

٩٦٢. عدم استصغار إنفاق أي شيء ينفع في سبيل الله، مع الحث على اختيار الأجود والأنفع قدر المستطاع. ووجهه: أنَّ قوله: ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ نكرة في سياق الشرط، فتعم كل شيء نافع.

٩٦٣. وقوله: ﴿يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ﴾ فيها الحث على الاجتهاد في إنفاق الأجود والأحسن؛ لنيل الجزاء الأوفى والأكمل؛ لذلك كان النبي ﷺ يوجه إلى شراء خيول بأوصاف معينة؛ لحبسها في سبيل الله.

٩٦٤. تفيد أنَّ القرآن يهدي الأمة للتي هي أقوم في سائر مناحي الحياة ومن أعظمها الشؤون العسكرية.

٩٦٥. يفيد التعبير بقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ مع أنَّ الأعمال غير موجبة الثواب حتى يكون ترك ترتيبه عليها ظلماً لبيان كمال نزاهته سبحانه عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح وإبراز الإثابة في معرض الأمور الواجبة عليه تعالى (افاده صديق خان).

قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١]

٩٦٦. تفيد مع ما قبلها أنَّ على القائد أن يعدَّ كل أسباب النصر والاستعداد للقتال ولكن لا يمنعه ذلك من الجنوح للسلم إن هم تنازلوا.

٩٦٧. فيها، وبضميمة ما قبلها: تعليم للمسلم أن يتمتع بالمرونة مع القوة، وألَّا يكون متعنتا صلباً راكباً لرأسه؛ ألا ترى إلى قول النبي ﷺ: "... ومثل الكافر كمثل الأرزة صماء معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء". رواه البخاري. وقد ضرب قبله مثلا للين المؤمن.

٩٦٨. تفيد وبضميمة ما قبلها: أنَّ ما يحمل ويدفع الكفار إلى السلم، أن يجدوا المسلمين في إعداد وقوة. وأنَّهم إن وجدوهم في ضعف وتخلُّف حاربوهم.

٩٦٩. تفيد وبضميمة ما قبلها: أنَّه لا صلح ولا سلام ولا سلم دون أن تملك الدولة المسلمة عدَّة وقوة. فالإعداد أولاً، ثم إن جنحوا فاقبل منهم.

٩٧٠. تفيد دقة الهداية القرآنية في قوله تعالى ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ﴾ أي إنْ مالُوا إلى السَّـــلْمِ مَيْلَ القاصِدِ إلَيْهِ، كَما يَمِيلُ الطّائِرُ الجانِحُ. وإنَّما لَمْ يَقُلْ: وإنْ طَلَبُوا السَّلْمَ فَأجِبْهم إلَيْها، لِلتَّنْبِيهِ عَلى أنَّهُ لا يُسْعِفُهم إلى السَّلْمِ حَتّى يَعْلَمَ أنَّ حالَهم حالُ الرّاغِبِ؛ لِأنَّهم قَدْ يُظْهِرُونَ المَيْلَ إلى السَّلْمِ كَيْدًا، فَهَذا مُقابِلُ قَوْلِهِ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾[الأنفال: ٥٨] ، فَإنَّ نَبْذَ العَهْدِ نَبْذٌ لِحالِ السَّـــلْمِ. واللّامُ في قَوْلِهِ ﴿لِلسَّلۡمِ﴾ واقِعَةٌ مَوْقِعَ (إلى) لِتَقْوِيَةِ التَّنْبِيهِ عَلى أنَّ مَيْلَهم إلى السَّلْمِ مَيْلُ حَقٍّ، أيْ: وإنْ مالُوا لِأجْلِ السَّلْمِ ورَغْبَةً فِيهِ لا لِغَرَضٍ آخَرَ غَيْرِهِ.

٩٧١. تفيد قوة الاسلام وأهله. فمع استعدادهم وقدرتهم يصالحوا عدوهم إن لجأ الى الصلح وأعظم العفو: العفو عند المقدرة.

٩٧٢. تفيد الدعوة الي سلامة الصدر وسهولة قبول الصلح رد على أعداء الله من الزنادقة والمنافقين؛ الذين لا يتحدثون عن الإسلام بأنَّه دين العداء – كذبوا. ولأهمية السلم ومما يؤكد أنَّ الإسلام دين السلام فأمرنا بالتوكُّل وتحمُّل تبعات السلم حتى ولو كان هنالك بصيص غدر ومنها قوله تعالى ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞ...﴾ [النساء:٩٤].

٩٧٣. تفيد تعدد خيارات الحرب، فتارة يكون بالتنكيل والأخذ والأســـر، أو نقض العهد ان هم خانوا او بالصلح والاتفاقيات وغيره.

٩٧٤. تفيد: أنَّ الإسلام دين محكم منظَّم متكامل. ويعلِّم أتباعه ويوجههم عند الحرب والسلم.

٩٧٥. من أعظم العبادات التوكل على الله..

٩٧٦. فيها أنَّ التوكل على الله يجب أن يكون في الحرب وفي السلم، وفي كل شؤوننا.

٩٧٧. التوكل على الله من أعمال القلوب العظيمة والتي يتعبد بها المؤمن ويجب أن يحرص عليها المؤمن حرصا كبيرا ويتعهدها دائما وأبدا في كل وقت وحين.

٩٧٨. من أعظم ثمار التوكل على الله التوفيق والسداد في الأقوال والأعمال والحرب والسلم.

٩٧٩. تفيد وبضميمة ما بعدها: أنَّ التوكل على الله سبب في نصر الله وتأييده وكفايته.

٩٨٠. فيها: أهمية اصطحاب التوكل على الله عند العزم على الأمور والمضي فيها.

٩٨١. فيها: افتقار الأنبياء لربهم وتوكلهم عليه.

٩٨٢. فيها إفادة: بعدم الغلو في حق النبي ﷺ.

٩٨٣. فيها: إشارة إلى: أهمية النيَّة وإصلاحها أثناء الاتفاقيات والصلح وسائر العقود؛ لقوله: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾. وهذا من آثار وأسرار ورود أسماء الله الحسنى في الآي. وتأمل هذه: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾.

٩٨٤. تفيد: أنَّه لا بد للمسلمين – مهما أتوا وكان عندهم من قوة – من توجيهات ربانية تقودهم وتوجّههم؛ فلو لم يأمر الله بإجابتهم للسلم، قد يصر المسلم على قتالهم؛ فيفوّت بذلك مصالح كثيرة يرغب الشارع فيها.

٩٨٥. أنَّ الحكم والموقف من الغير يبنى على الظاهر، ويترك الباطن لعلَّام الغيوب، مع الاحتياط وتفويض الأمور إلى الله. ووجهه: مناسبة الآية بما بعدها.

٩٨٦. تفيد أنَّ الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، وأنَّ العزَّة لله ولرسوله وللمؤمنين. ووجهه ظاهر: مبادرة السلم من الكفار بعد عمل المسلمين بأمر الله بإعداد قوة رادعة. مع قوله: "فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون...".

٩٨٧. فيها أنَّ ختام الآية صفه "عليم" أي عليم بمآلات الحرب، ومآلات السلم والتي ستصب في مصلحة المسلمين بما يدفع للتوكل عليه والرضى بما يقدره.

قال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢]

٩٨٨. هذه الآية مناسبة لختام الآية السابقة، لأنَّ المسلمين إذا قبلوا السلم وتوكَّلوا على الله، فلا يخافوا من خداع الكفار لهم بإظهار السلم، وهم خلاف ذلك، فالله هو السميع الذي

يسمع ما يقولونه في الخفاء من مقالات الخداع، وهو العليم الذي يعلم ما في نيَّاتهم فيرد كيدهم في نحورهم، وهو كافي المؤمنين وناصرهم.

٩٨٩. فيها مقابلة كفاية الله للمؤمن لمجرد إرادة العدوِّ الخديعةَ... فكيف تكون الكفاية الإلهية للمؤمن في حال وقعت الخديعة من العدو وتمَّت؟!

٩٩٠. والتعبير بالمضارع في ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ﴾ يستوجب التيقُّظ التام من قبل المؤمنين؛ لأنَّ الخديعة وإرادتها تتجدد فترة بعد فترة.

٩٩١. التعبير بالجملة الإسمية في ﴿حَسۡبَكَ ٱللَّهُ﴾ وتأكيدها بـــ "إن" يفيد ثبات مضمون الجملة وهو الكفاية الالهية لعباده المؤمنين، وقوَّتها، وأحقِّيتها.

٩٩٢. في نيابة النبي ﷺ عن أمته في الخطاب، فإنَّ حظهم في الكفاية على مقدار حدِّهم من متابعته ﷺ.

٩٩٣. فيها أنَّ ميل العدو للمسالمة قد يكون حقيقياً وقد يكون خدعة فعلى المسلمين الحذر من عدوِّهم في السلم والحرب. فهو متربص غدار.

٩٩٤. تشير إلى: خطر الخداع والخيانة، وأنَّ الله يخذل الخائن.

٩٩٥. تفيد أنَّ النوايا السيئة تضر أصحابها بل وتوردهم المهالك.

٩٩٦. تفيد أنَّ الديانة الإسلامية تسعى لجعل العالم أكثر أماناً وتحضُّراً ورُقيَّاً في التعامل مع الآخرين؛ ولا تسمح لأتباعها ولا لغيرهم أن يستخدموا الوسائل الخسيسة والطرق الخبيثة للوصول إلى أهدافهم مهما كانت نبيلة وشريفة وعليه؛ فإنَّ للوسائل حكم المقاصد. وبيان وجه الاستنباط: أنَّ الله ﷻ لم يأمر نبيَّه أن يسعى إلى خداعهم عملاً بالمثل؛ وذلك لأنَّ الباطل والخطأ لا يعالجان بالباطل والخطأ؛ والمؤمن صاحب مبادئ وقيم لا يتنازل عنها بسبب تصرفات مشينة تصدر من أعدائه.قال ابن عاشور: فَأَمَرَهُ بِأَنْ يَأْخُذَ الأَعْداءَ عَلى ظاهِرِ حالِهِمْ، ويَحْمِلَهم عَلى الصِّدْقِ؛ لِأَنَّهُ الخُلُقُ الإسْلامِيُّ وشَأْنُ أهْلِ المُرُوءَةِ؛ ولا تَكُونُ الخَدِيعَةُ بِمِثْلِ نَكْثِ العَهْدِ.

فَإذا بَعَثَ العَدُوَّ كُفْرُهم عَلى ارْتِكابِ مِثْلِ هَذا التَّسَفُّلِ، فَإنَّ اللَّهَ تَكَفَّلَ لِلْوَفِيِّ بِعَهْدِهِ أنْ يَقِيَهُ شَرَّ خِيانَةِ الخائِنِينَ. وهَذا الأصْلُ، وهو أخْذُ النّاسِ بِظَواهِرِهِمْ، شُعْبَةٌ مِن شُعَبِ دِينِ الإسْلامِ.

٩٩٧. فيها مدح عظيم لأصحاب محمد ﷺ؛ حيث إنَّ الله تعالى جعلهم وزراء نبيّه ﷺ، ومناصري دينه.

٩٩٨. فيها الأمر باتخاذ الأسباب وأنَّها مؤثّرة بإذن الله. وإلا فالله تعالى قادر على نصرة نبيّه تعالى من غير سبب وهو تعالى حسبه ولكنَّ الله تعالى لحكمة يعلمها ربط نصره تعالى بالأسباب. فقال في الآية قبلها: ﴿وَأَعِدُّواْ...﴾ وهذا أمر صريح باتخاذ الأسباب وقال تعالى هنا ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ﴾ وهو الأصل، والمؤثّر الحقيقي وهو تعالى حسبه. ثم أردفها ﴿وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فجهادهم في سبيل الله سبب للنصر ولذا قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ ، وقال : ﴿وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖ﴾ فلله الحكمة البالغة.

٩٩٩. تفيد: أنَّ من لم يؤيّده الله بنصره، فلا ناصر له.

١٠٠٠. فيها: أنَّ النصر من عند الله؛ بدليل الإضافة ﴿بِنَصۡرِهِۦ﴾.

١٠٠١. تفيد: أنَّ الله يؤيّد أنبياءه بالمؤمنين. وعليه: فلينظر إلى الأعوان والنصراء.

١٠٠٢. تشير إلى: الإذعان والاعتراف بالجميل، وحفظه لأصحابه؛ لقوله: ﴿بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

١٠٠٣. تفيد: عدم تعلُّق قلب المؤمن في أمر النصر إلا بالله وحده؛ فلا يعلقه برموز ولا أعلام مهما بلغوا. وحسبك بقول الله لنبيّه: ﴿أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ﴾؛ فهو ﷺ لا يملك لنفسه ولا لغيره نصراً، وعزل عمر بن الخطاب ﷺ خالداً مخافة أن يتعلق قلوب الناس به؛ لأنَّه لم يهزم قط ﷺ.

١٠٠٤. تفيد فضيلة الصحابة الكرام ﷺ فهم كانوا عونا للنبي ﷺ في تبليغ دعوته ونصرة دينه.

١٠٠٥. تفيد أهمية اتخاذ الأصحاب الذين يعينونك على طاعة الله تعالى ونصرة دينه.

١٠٠٦. تفيد مع ما قبلها ردّاً لطيفاً على القادة الذين يسعون لعقد الاتفاقيات والمصالحة مع الكفار من أجل التقوّي والانتصار بهم على أعدائهم؛ دون أن يكترثوا إلى أنَّ النصر والتأييد بيد الله لا بيد هؤلاء؛ ودون أن يشعروا أنَّ هؤلاء قد يسعون إلى خديعتهم وإيقاعهم في الفخّ ثم الانقضاض عليهم بعد ذلك.

١٠٠٧. تفيد أنَّ أيّ تأييد وانتصار يكون عن طريق الاستعانة بغير المسلمين فإنَّ فيه خطورة على كيان الأمَّة؛ فإنَّ الله ﷻ أيَّد نبيَّه بالمؤمنين دون غيرهم؛ وعليه فإنَّ الانتصار بالمؤمنين بمبادئك وقيمك – وإن كانوا قلَّة – أولى من الانتصار بمن لا يؤمنون بمبادئك وقيمك ولو كانوا بأعداد كبيرة. وهذه استراتيجية عظيمة في النصر يضعها القرآن الكريم بين يدي الأمَّة للعمل بموجبها.

١٠٠٨. أنَّ الجماعة قوَّة رادعة وسبب للانتصار ﴿وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. وقال عن قوم شعيب: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ...﴾.

قال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣]

١٠٠٩. تفيد دقة التناسب وروعة التناسق مع ما جاء في بداية السورة من اختلاف الصحابة وتنازعهم في الأنفال، وذلك في إشارة واضحة إلى أنَّ الأمور المادية لا تجلب الألفة والمحبة ولا إصلاح ذات البين، فإنَّه عليه الصلاة والسلام لو أنفق ما في الأرض جميعا – وليس الأنفال والغنائم التي غنموها من كفار قريش فقط – لما استطاع أن يؤلف بين قلوبهم، ولا أن يصلح ذات بينهم إلا أنَّ الله ﷻ ألَّف بين قلوبهم، وأصلح ذات بينهم، وذلك بعد أن قاموا بطاعته واتباع أمره.

١٠١٠. تفيد: أنَّ القلوب بيد الرحمن؛ يقلِّبها كيف يشاء. كما صحَّ الخبر بذلك.

١٠١١. فيها: بيان سلطان الله على قلوب عباده – وبدليل التذييل. وأنَّ أفعاله دائرة بين العزَّة والحكمة. وكما قال: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾، أي: يقهرها ويذلّها بالملك والسلطان. كما قال في تأويل المشكل.

١٠١٢. فيها: تزكية وشهادة من الله تعالى للصحابة ﷺ.

١٠١٣. تفيد: أنَّ تأليف القلوب من الله وحده؛ وتفكَّر في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

١٠١٤. فيها دلالة على إحدى المعجزات التي أيَّد الله بها رسوله ﷺ، بتأليفه لقلوب العرب بعد العداوة والعصبية القبلية التي كانت بينهم، فاجتمعت قلوبهم على الإيمان وأحبوا بعضهم البعض.

١٠١٥. تفيد: أنَّ الألفة نعمة من الله توجب الشكر؛ وتصديقه: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾.

١٠١٦. فيها العناية بشأن القلب، إذ هو موطنٌ للعبادات والاعتقادات.

١٠١٧. تفيد: أنَّ دين الإسلام هو الحقّ، وأنَّه يجمع القلوب وسبب في الألفة. فإن قلت: ذكرت أنَّ الإسلام يجمع القلوب وسبب في الاجتماع، وأنت ترى الكافرين مجتمعين! أقول: هو اجتماع في الظاهر فيما يبدو للناظر؛ كما قال الله: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾. وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١١ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾[الحشر: ١١-١٢]. ولأنَّ الإسلام هو الدين الوحيد الذي لا يقبل الشريك؛ لأنَّ من قواعده وأصول عقيدته "الولاء والبراء"؛ بخلاف غيره من الأديان.

١٠١٨. فيها أنَّ تأليف القلوب من مقاصد الشرع العظمى. كما تحمل الآية المباركة التوجيه إلى كل ما يجمع القلوب والكلمة، ويباعد عن التفرُّق والتَّشرذم.

١٠١٩. لما ألَّف الله بين تلك القلوب دلَّ ذلك على أنَّها كانت من قبل متنافرة، ومتفرِّقة في أودية الأهواء المتشعبة؛ فجمعها الله، وألَّف بينها بالإسلام والإيمان، والقرآن على معبود واحد، ومتبوع واحد، وقبلة واحدة. فأثمر لهم ذلك وحدة صفهم، وجمع كلمتهم.

١٠٢٠. فيها أنَّ الاجتماع الحقّ هو اجتماع القلوب وليس اجتماع الأبدان؛ وقد وصف الله ﷻ الكفار بقوله: ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰ﴾ وهذه الصفة ينبغي أن يستفيد منها المسلمون في السياسة الدولية بمعرفة أنَّ الكفار في ضعف وتفرُّق وإن أظهروا غير ذلك بالاتحادات الوهمية كالاتحاد الأوربي والاتحاد السوفيتي سابقا الذي انهار في لحظات وتلاشى كما يتلاشى الدخان، بل حتى الولايات المتحدة الأمريكية تحمل بذور ضعفها وانهيارها في اتحادها الهش، والحرب الأهلية الأمريكية سابقاً تدلُّ على ذلك.

١٠٢١. تفيد: أنَّ الألفة غالية الثمن.

١٠٢٢. فيها: عناية الله وتمنُّنه على عبده محمد ﷺ.

١٠٢٣. فيها صعوبة التأليف بين القلوب على البشر إلا من وفقَّه الله لذلك، وفي هذا تحريض على شكر الله على هذه النعمة، إذ السياق للامتنان.

١٠٢٤. تفيد: أنَّ من وجد من نفسه عداوة لغيره أو العكس، أن يلجأ إلى الله ليكشف عنه؛ فمن المحال أن يؤلِّف بين هذه القلوب ويجعلها على قلب رجل واحد، إلا الله – جل ذكره. وتأمل قوله: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

١٠٢٥. فيها أنَّ الله تعالى هو مالك القلوب سبحانه يقلِّبها كيف يشاء. وقد صحَّ عنه ﷺ أنَّه قال: "إنَّ قلوب بني آدم كلَّها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء، ثم قال رسول الله ﷺ: اللهم مصرِّف القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك."

١٠٢٦.فيها أنَّ تحقيق الألفة أمر جديرٌ بأن يبذل في سبيله المال، وهذا متوافق مع تهادوا تحابوا.

١٠٢٧. ليس المال والمادة سبب رئيسي للألفة بين القلوب، لأنَّ الألفة تحصل بما يوقع الله في هذه القلوب من المحبة والودِّ، ولكنَّ الله شرع أسبابًا يبذلها البشر لتحقيق هذه الألفة منها ما هو معنوي كإفشاء السلام، ومنها ما هو مادي كالهديَّة، وأعظم تأليف للقلوب تأليفها للدخول في الإسلام، والمال يبذل في ذلك.

١٠٢٨. وفيها: الاستدراك في ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ دفع لما يتوهَّم من تعذُّر التأليف بينهم.

١٠٢٩. لما بيَّن سبحانه أنَّ تأليف القلوب حقيقة لا يكون بالمال أو حطام من الدنيا؛ أفاد ذلك أنَّ مظانَّ الألفة في هدي الكتاب والسنة؛ دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ ، وقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

١٠٣٠. لا تيأس ولا تكسل في بذلك لأسباب التأليف وإن لم يحصل بها التأليف؛ فقد يخرق الله العادة كرامة منه سبحانه لعبده بسبب بذله وجهده لا لأجل السبب ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ﴾ ، قال ابن عاشور/: والتَّأْلِيفُ بَيْنَ قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ مِنَّةٌ أُخْرى عَلى الرَّسُولِ. وقال أيضا: قَوْلُهُ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ اسْتِئْنافًا ناشِئًا عَنْ مَساقِ الِامْتِنانِ بِهَذا الِائْتِلافِ، فَهو بَيانِيٌّ، أيْ: لَوْ حاوَلْتَ تَأْلِيفَهم بِبَذْلِ المالِ العَظِيمِ ما حَصَلَ التَّآلُفُ بَيْنَهم. بل قاله صراحة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ اسْتِئْنافٌ ابْتِدائِيٌّ بِالإقْبالِ عَلى خِطابِ الرَّسُولِ ﷺ بِأوامِرَ وتَعالِيمَ عَظِيمَةٍ، مَهَّدَ لِقَبُولِها وتَسْهِيلِها بِما مَضى مِنَ التَّذْكِيرِ بِعَجِيبِ صُنْعِ اللَّهِ والِامْتِنانِ بِعِنايَتِهِ بِرَسُولِهِ...

١٠٣١. قال القصَّاب في النكت: قوله: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ حجَّة على قبول الإجماع ولزومه لزوم نص القرآن؛ إذ محال أن تتفق الألسن

على شيء إلا وقد ائتلفت قلوب الناطقين به؛ لأنَّ الألسنة مترجمة عن الضمائر ما حوتها، وقد أخبر الله تعالى كما ترى أنَّه مؤلِّفها.

١٠٣٢. فيها: دقَّة التعبير، ومناسبة التذييل بالسياق؛ من وجوه: منها: لما كان هذا التأليف عزيز ممتنع، ناسب قوله: ﴿عَزِيزٌ﴾. وكأنَّه يقول: وكيف يعز عليه ذلك، وهو العزيز سبحانه؟ وكما قال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

١٠٣٣. وفيها: أنَّه سبحانه القوي الحكيم قادر على جعل المتعذر مسنوناً مألوفاً، وهذا ختام بديع جميل.

١٠٣٤. لعلَّها تفيد: أنَّ من المناسب عند دعاء الله وسؤاله أن يؤلف بينك وبين أحد، أن يناجيه – سبحانه – باسمي "العزيز والحكيم".

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]

١٠٣٥. تفيد وبضميمة ما سبق: أنَّ المنَّة لله وحده؛ فمهما أيَّد الله دينه ونبيَّه بأحد؛ فتبقى المنَّة له سبحانه وحده. وعليه: ففيها مناسبة دقيقة جداً لما سبق من قوله: ﴿أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. ثم أخبر بعدها أنَّه كافيك وهم؛ لأنَّهم مهما اجتمعوا وتآلفت قلوبهم، فلا غنى لهم عن كفاية الله إيَّاهم.

١٠٣٦. تفيد مع ما قبلها أهمية وعظم تكرار هذه الكلمة والإكثار منها على لسان العبد المؤمن ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ وخصوصا في مواطن الجهاد وخوض الصعاب ومواجهة كيد الأعداء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ...﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ...﴾ وقد ورد في صحيح البخاري عن عبد الله بن عباس بأنَّه قال: (حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ : قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا : ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

١٠٣٧. فيها فضيلة ومنقبة شريفة للنبي ﷺ حيث ناداه ربُّه جل وعلا بوصف ومقام النبوة، وفي مواضع بالرسالة، وهما من أكمل أوصافه، وأرفع مقاماته. وهذه الخصوصية لم تثبت لغيره من الأنبياء، فكل نبي ناداه الله باسمه، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ﴾، وقال: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ وقال: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ﴾ وقال: ﴿يَا مُوسَى﴾ وقال: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ﴾. أما الآيات التي ذكر الله فيها نبيَّه باسمه، فإنَّما جاء ذلك على سبيل الإخبار، كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ﴾. ومما يتعلق بهذه الخصوصية، أنَّ الله سبحانه نهى عباده المؤمنين عن نداء نبيّه محمدًا باسمه العَلَم قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ فنهى سبحانه المؤمنين عن نداء نبيهم كما ينادي بعضهم بعضًا، وطلب منهم مناداة نبيه الكريم بوصف ومقام النبوة والرسالة؛ تشريفًا لقدره، وبيانًا لمنزلته؛ لتزداد النفوس محبة له، واقتداء به.

١٠٣٨.يفيد " ومن اتَّبعك" تحتمل العطف على الكاف وعلى الاسم الأحسن. على الأول يكون المعنى: حسبك الله وحسب من اتَّبعك. وعلى الثاني: حسبك الله وحسبك من اتَّبعك من المؤمنين.

١٠٣٩. فيها إكرام للمؤمنين ورفعة مكانتهم بين البشر.

١٠٤٠. فيها أنَّ جيل الصحابة ﷺ هو جيل الاصطفاء الربَّاني والذي زكَّى هذا الجيل العظيم هو الله ﷻ.

١٠٤١. تفيد جواز العطف على الضمير المتصل المخفوض من غير إعادة الخافض على المذهب المختار؛ فقوله تعالى: ﴿وَمَنِ﴾: في محل جر؛ عطفًا على الضمير المجرور في قوله: ﴿حَسْبُكَ﴾، وتقرير المعنى عليه: حسبك الله: أي: الله كافيك، وكافي من اتَّبعك من المؤمنين؛ وأمَّا من قال: إنَّ المعنى: حسبك اللهُ وأتباعُك؛ فهذا خطأ محض؛ ولا يجوز حمل الآية عليه؛ فإنَّ الحسب والكفاية لله وحده، كالتوكُّل والتقوى والعبادة.

١٠٤٢. لما أيَّد نبيَّه ﷺ بنصره وبالمؤمنين الذين ألَّف بينهم بمنِّه وكرمه سبحانه، جاء التأكيد على أنَّه حسبه وكافيه، وجعل للمؤمنين الذين آمنوا به واتَّبعوه نصيب من هذه الكفاية.

١٠٤٣. تفيد أنَّ اتِّباع النبي ﷺ والتزام هديه والسير على منهاجه من أعلى المراتب والمقامات الإيمانية؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٠٤٤. فيها: الدقَّة والتَّحرِّي في العبارة؛ لقوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ ليخرج من اتَّبعه من المنافقين ظاهراً؛ ممن أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر. قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾.

١٠٤٥. تفيد: أنَّ اتِّباع النبي ﷺ سبب في كفاية الله وتأييده للعبد.

١٠٤٦. ومن فوائده: الجمع بين الاعتراف بحقِّ الله ثم الجميل وحقِّ الناس؛ وتصديقه – وتأمل – ما رواه البخاري مرفوعاً: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَاصِمٍ، قَالَ: لَمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ، قَسَمَ فِي النَّاسِ فِي المؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ، وَلَمْ يُعْطِ الأَنْصَارَ شَيْئًا، فَكَأَنَّهُمْ وَجَدُوا إِذْ لَمْ يُصِبْهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ، فَخَطَبَهُمْ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ بِي» كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ، قَالَ: «مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تُجِيبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ». قَالَ: كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا، قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ، قَالَ: " لَوْ شِئْتُمْ قُلْتُمْ: جِئْتَنَا كَذَا وَكَذَا، أَتَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالبَعِيرِ، وَتَذْهَبُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى رِحَالِكُمْ، لَوْلاَ الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَشِعْبًا لَسَلَكْتُ وَادِيَ الأَنْصَارِ وَشِعْبَهَا، الأَنْصَارُ شِعَارٌ وَالنَّاسُ دِثَارٌ، إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أُثْرَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الحَوْضِ" (البخاري (٥/ ١٥٧) في رواية عند أحمد: قال: «أفلا تقولون جئتنا خائفاً فآمنَّاك، وطريداً فآويناك، ومخذولاً فنصرناك»، قالوا: بل لله المنُّ علينا ولرسوله.

١٠٤٧. تفيد الآية ما جاء عند البخاري من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: " يَغْفِرُ اللَّهُ لِلُوطٍ، إِنْ كَانَ لَيَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ".

١٠٤٨. فيها بيان مكانة الصحابة من النبي ﷺ.

١٠٤٩. فيها اتصاف هؤلاء المؤمنين الخُلَّص بالاتِّباع وهو مناط التشريف لهم.

١٠٥٠. فيها فضل اتِّباع النبي ﷺ؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ولهذا كل من كان متبعا للرسول كان الله معه بحسب هذا الاتِّباع قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي حسبك وحسب من اتبعك فكل من اتَّبع الرسول من جميع المؤمنين فالله حسبه وهذا معنى كون الله معه. والكفاية المطلقة مع الاتِّباع المطلق، والناقصة مع الناقص وإذا كان بعض المؤمنين به المتَّبعين له قد حصل له من يعاديه على ذلك فالله حسبه وهو معه وله نصيب من معنى قوله: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ فإنَّ هذا قلبه موافق للرسول وإن لم يكن صحبه ببدنه والأصل في هذا القلب. (منهاج السنة ٤٨٧/٨)

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥]

١٠٥١. فيها: الأمر بالأخذ بأسباب النصر وهو الحث والترغيب في مجاهدة الأعداء وذلك ببيان ما أعدَّه الله ﷻ لمن قاتل في سبيله بجنَّة عرضها السموات والأرض.

١٠٥٢. في الآية بيان لفضيلة الجهاد وكونه أساساً لعزِّ جناب المسلمين وإلَّا لما وقع الحث عليه.

١٠٥٣. تفيد أنَّ من صفات القائد أن يقوم بغرس الشجاعة في قلوب أتباعه؛ وحب الإقدام على المخاطر؛ وتعلُّم الفنون والمهارات القتالية والمواجهات العسكرية، وتهيئتهم جسديًّا ونفسيًّا للقيام بالمهمَّات الصَّعبة والشَّاقَّة.

١٠٥٤. فيها: المناسبة: لما وعد الله ﷻ نبيَّه ﷺ بالكفاية والنصر والتمكين، أمره هنا بأن يأمرهم بالجد في القتال وعدم الخوف، فالنبي ﷺ عليه التحريض للقتال والكفاية والنصر منه -.

١٠٥٥. من هداية الآية الكريمة أنَّ تخصيص خطاب تحريض المؤمنين على القتال بالنبي ﷺ بما أنَّ له الولاية على المؤمنين.. وبالتالي فإنَّ تطبيق هذه الآية متعلق بولاة الأمر بحيث يكونون مأمورين بذلك بحسب واقع الحال.. والغفلة عن هذا الأمر جعل بعض الفئات التي ليس لها

ولاية شرعية تتولَّى هذه الوظيفة افتئاتاً على ولاة الأمر ممَّا أدَّى إلى مفاسد عظيمة انتهكت فيها أعراض وأزهقت فيها أنفس.. والله أعلم

١٠٥٦. فيها التأصيل لمفهوم الحثِّ والتحفيز لكل ما فيه خير للإسلام والمسلمين بعامة، والحث على جهاد العدو والنفس بخاصَّة.

١٠٥٧. فيها: بيان عظيم دور القائد وقدرته على التأثير.

١٠٥٨. فيها غيظ أعداء الله القائلين بعدم صلاحيَّة القرآن المدني للعصر الحديث، المبشِّرين برسالة جديدة.

١٠٥٩. ولَمّا بَيَّنَ أنَّهم كافُونَ مَكْفِيُّونَ، وكانَ ذَلِكَ مَشْرُوطًا بِفِعْلِ الكَيْسِ والحَزْمِ وهو الِاجْتِهادُ بِحَسْبِ الطّاقَةِ، أمَرَهُ بِأنْ يَأْمُرَهم بِما يَكُونُونَ بِهِ كافِينَ مِنَ الجِدِّ في القِتالِ وعَدَمِ الهَيْبَةِ لِلْأبْطالِ في حالٍ مِنَ الأحْوالِ، فَقالَ مُعَبِّرًا بِالوَصْفِ النّاظِرِ إلى جِهَةِ التَّلَقِّي عَنِ اللَّهِ لِيَشْتَدَّ وُثُوقُ السّامِعِ لِما يَسْمَعُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾.

١٠٦٠. فيها: أهمية القتال والجهاد في سبيل الله؛ لما فيه من المصالح العظام؛ والتي منها: كف بأس الذين كفروا؛ وتصديقه: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

١٠٦١. فيها أنَّ النفوس مجبولة على حبِّ الحياة فاحتاجت إلى التحريض والتشجيع.

١٠٦٢. فيها عظم المسؤولية على النبي من الرسالة والتكليف والقيادة والتصدُّر باقتحام المخاطر كالقتال عليه أفضل الصلاة والتسليم فيزيد العلم بذلك حبنا له وتقديرنا لمكانته.

١٠٦٣. فيها: أنَّ الصبر عنصر أساسي، وأمر مهم في التمثل به في قتال الأعداء ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ﴾.

١٠٦٤. فيها: أهمية تحديد الهدف والغاية من أي عمل، فقوة العمل والأداء تنبع من قوة الهدف، ويؤخذ هذا من كلام الطبري/ في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ لأنَّهم لم يفقهوا أنَّ

الله مُوجبٌ لمن قاتل احتسابًا، وطلب موعود الله في الميعاد، ما وعد المجاهدين في سبيله، فهم لا يثبتون إذا صدقوا في اللقاء، خشية أن يُقتلوا فتذهب دنياهم".

١٠٦٥. فيها: أنَّ القتال مشقَّة والأجر على قدر المشقَّة، قال ابن عاشور/:(وصابرون ثابتون في القِتالِ؛ لِأنَّ الثَّباتَ عَلى الآلامِ صَبْرٌ؛ لِأنَّ أصْلَ الصَّبْرِ تَحَمُّلُ المشاقِّ).

١٠٦٦. فيها: الصبر وأهميته وأثره عند القتال؛ قال الله: ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾. وقد بوَّب البخاري "باب الصبر عند القتال"، وساق بسنده إلى النبيﷺ: "إذا لقيتموهم فاصبروا".

١٠٦٧. وعدم الاستيحاش من قلَّة السالكين.وعدم الخوف من كثرة الهالكين فالعبرة بالحقائق لا بالمظاهر.

١٠٦٨. تفيد: التحمُّل وعدم الهلع وعدم الخشية من كثرة العدو عند القتال؛ ليحصل النصر والغلبة، ويتجنب الفرار والنكوص عند الالتحام؛ لقوله: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِ﴾. وعليه: فالنصر مع الصبر. بل إنَّه حديث عن رسول ﷺ: "النصر مع الصبر والفرج مع الكرب: وإنَّ مع العسر يسرا". وروي بلفظ: "واعلم أنَّ النصر مع الصبر".

١٠٦٩. فيها بيان أنَّ من السنن الإلهية ما يخالف القوانين الوضعية ولا يمكن تبريرها عقليًّا أو حسابيًّا حيث يطرح الله البركة كيفما شاء.

١٠٧٠. فيها: أنَّ الكفار ليس لهم هدف ولا غاية في القتال فقلوبهم مغلقة وبصائرهم مطموسة فهم لا يطلبون ثواباً ولا يحتسبون أجراً ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾.

١٠٧١. فيها: ﴿لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ أهميَّة الفقه، ومعرفة الأمور الخفيَّة، والنظر والاستنباط.

١٠٧٢. فيها أنَّ أهل الكفر لا يفقهون الحكمة والغاية من خلقهم، ولا يفقهون عن الله ورسوله؛ وهو أعظم الجهل وإن برعوا في الأمور الدنيوية، والعلوم والاكتشافات المادية.

١٠٧٣.فيها: لزوم انتقاء وتقديم أهل الفقه والورع للقيادات أيًّا كانت، متى ابتغى العباد رفعة ونصرة.

١٠٧٤. فيها: أنَّ العلم بأنَّ الله ينصر عباده المؤمنين وهم قلَّه؛ من الفهم والفقه؛ لأنَّه يقين بالله وأنَّ كل شيء بإذنه؛ وتصديقه: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

١٠٧٥. تشـــير إلى: أنَّ من الناس من يكون فيه الخير ويملك المؤهِّلات، لكنَّه يحتاج إلى من يحرِّضه على العمل والإنجاز.

قال تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦]

١٠٧٦. الدين يسر ولا يكلِّف الله نفساً إلا وسعها.

١٠٧٧. الضعف صفه غالبة لبنى البشر مهما بلغت قوَّتهم.

١٠٧٨. تفيد الاستدلال بها لعدد من القواعد الشرعية: كقاعدة المشقة تجلب التيسير، وقاعدة الضرورات تبيح المحظورات، وقاعدة: إذا ضاق الأمر اتسع.

١٠٧٩. فيها: تعليم للمسلم أن يخفِّف وألَّا يشق على من تحته.

١٠٨٠. فيها وبضـــميمة ما قبلها: إشـــارة إلى أنَّ: الامتثال مهما شـــقَّ على النفس، فثمراته حميدة؛ لأنَّ الله يبتلي عباده بالأمر والنهي ليعلم من يتَّبع ممَّن ينقلب على عقبيه؛ وتصـديقه: ما ورد من أسباب نزول الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة؛ كما عند مسلم: وفيه: "فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى".

١٠٨١. فيها: عناية الإســـلام بالضـــعفاء، وأنَّه لا يرمي بأتباعه في المهالك؛ قال الله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ٩١]. والشواهد كثيرة.

١٠٨٢. وبمثل هذا يردُّ به على المشـــنِّعين على الإســـلام؛ وإلَّا فأين هم من الكفار من أمثال الداروينية، الذين كانوا يحضُّـــون على قتل الضـــعفاء والمرضـــى المجذومين والمعوقين؛ بحجِّية العرق النقي وأنَّه لا فائدة منهم!

١٠٨٣. فيها أنَّ الشـــريعة تراعي حالة الأمَّة، وتفرِّق بين حال الضَّـــعف وحال القوة في التشريعات، ولهذه الهداية أثرها في واقع الأمَّة اليوم..

١٠٨٤. فضيلة الصبر والحث عليه.

١٠٨٥. معية الله ملازمة للصابرين، فيترتب على الصبر التوفيق.

١٠٨٦. في الآية تنبيه للمؤمنين على ضـــرورة التحلِّي بالصـــبر والثبات والحزم والعزم مع الإيمان لتحقيق النصر والغلبة

١٠٨٧. أنَّ من سنن الله التي لا تتبدَّل ولا تتغيَّر... أنَّ الله مع الصابرين المحتسبين...

١٠٨٨. فيها: (أنَّ النصر مع الصبر) كما قال ﷺ.

١٠٨٩. فيها تأكيد لمعنى ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

١٠٩٠. فيها تأكيد أنَّ النصر ليس بكثرة العدد والعتاد بل بقوة الإيمان والصبر.

١٠٩١. تفيد: أنَّ الأمر كلَّه لله؛ مهما كان من قلة أو كثرة وغيرها؛ لقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

١٠٩٢. فيها: تعليم للمسلم أن يردَّ الأمر إلى الله؛ فإذا جزم أو بشر غيره بشيء – مثلا –، أن يستثني؛ فيقول: "بإذن الله – بمشيئة الله".

١٠٩٣. فيها: معيَّة الله الخاصَّة.

١٠٩٤. مشيئة الله نافذة مع وجوب بذل السبب بدليل ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧]

١٠٩٥. تفيد دقَّة التناســـب وروعة التناســـق بين فاتحة الســـورة وخاتمتها، وذلك أنَّ الخطاب الإلهي في بداية الســـورة وفي نهايتها جاء قويًّا ومزلزلاً وشـــديد الوقع في نفوس المؤمنين، كارهاً ما صـــدر منهم ســـواء من إرادتهم أخذ العير قبل المعركة، وكذلك إرادتهم أخذ الفداء عقب المعركة، لأنَّ في كلا الحالتين دلالة على حبِّ الدنيا، وعلى إبقاء الحياة على هؤلاء المشركين الذين أمرهم

بإثخان القتل فيهم، ولهذا نجد في هذا السياق إرادتين إلهيتين في بداية السورة وفي نهايتها، حيث قال تعالى هناك: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، وقال ههنا: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾، كما نرى أيضا إرادتين من بعض المسلمين في البداية والنهاية حيث قال تعالى هناك: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ﴾، وقال ههنا: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾، وربما أنَّ ذلك ربَّما يشير إلى أنَّ بداية السورة كانت إرادة إلهيَّة لإعلاء المسلمين في الدنيا، وفي نهايتها إرادة إله لما يعليهم في الآخرة.

١٠٩٦. فيها: عتاب لطيف من الله ﷻ لرسوله ﷺ وللمؤمنين حيث أسروا المشركين وأبقوهم لأجل الفداء.

١٠٩٧. أحكام الشريعة لا تقاس بالنظرة العقلية المجرَّدة .. وإلَّا فالنَّظر لأول وهلة يرجح فداء الأسرى.

١٠٩٨. فيها منزلة النبي ﷺ عند ربِّه؛ فلم يقل (ما كان لك أيها النبي) فجاءت الآية بالتعريض لعلو المقام.. فاللهم صل عليه وسلم..

١٠٩٩. فيها رحمة النبي ﷺ وحبه للتيسير على المسلمين. «قالَ أبُو بَكْرٍ: أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أحَبَّ واخْتارَ ذَلِكَ لِأنَّهُ مِنَ اليُسْرِ والرَّحْمَةِ بِالمُسْلِمِينَ إذْ كانُوا في حاجَةٍ إلى المالِ، وكانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ما خُيِّرَ بَيْنَ أمْرَيْنِ إلّا اخْتارَ أيْسَرَهُما ما لَمْ يَكُنْ إثْمًا».

١١٠٠. فيه جواز الاجتهاد فيما لا نص فيه، ويؤخذ ذلك من اجتهاد النبي عليه الصلاة والسلام في الأسرى.

١١٠١. ينبغي الأخذ بالشدة والقوة والحزم إذا كان فيها نصرة الدين وعزَّة ورفعة للمسلمين قال ابن عاشور/:(فهذا تَرْجِيحٌ لِلْمُقْتَضى السِّياسِيِّ العَرَضِيِّ عَلى المُقْتَضى الَّذِي بُنِيَ عَلَيْهِ الإسْلامُ وهو التَّيْسِيرُ والرِّفْقُ في شُئُونِ المسْلِمِينَ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ كما قالَ تَعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾[الفتح: ٢٩].

١١٠٢. فيها: المناسبة: بعد الحديث عن القتال ختم هنا بأحكام الأسرى التي هي أثر ونتيجة من نتائج القتال.

١١٠٣. في الآية دليل على حبِّ الله للمؤمنين حيث يريد لهم العزَّة والغلبة كما يريد لهم الحكمة ووضع الأمور في نصابها.

١١٠٤. تفيد أنَّ المعاتبة عند الخطأ أو فعل خلاف الأولى لا تتنافى مع المحبَّة؛ فلا بأس أن يعاتب المحبُّ حبيبه.

١١٠٥. فيها: مشروعية الأسر؛ شريطة الإثخان أولاً؛ وتصديقه: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾.

١١٠٦. تفيد: ذمُّ العجلة – في مثل هذه المواطن. وأنَّها تفوِّت كثيراً على العبد، وتحمله على فعل ما لا ينبغي.

١١٠٧. تفيد: أنَّ الأسر قبل الإثخان لا يحدث للمسلمين العزَّة المطلوبة.

١١٠٨. كما أنَّ فعله ينافي الحكمة؛ فضِـــدَّه هو الحكمة بعينها؛ بدليل التذييل: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾، عزيز: لا يغالبه أحد وإن أسر من غير إثخان؛ فإنَّه إن سبق وفلت من سيفكم، فلن يفلت منَّا؛ كما قال: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾.وحكيم: في تشريعه وأمره ونهيه؛ الذي من جملته أمره إيَّاكم بالإثخان قبل الأسر.

١١٠٩. فيها: بيان حقارة الدنيا حيث سمى الله ﷻ الفداء عرضـــا لقلة بقائه وســـرعة فنائه. (أفاده النسفي/).

١١١٠. من أصعب الأمور تخليص النيَّات من الشوائب، فحتى في مواطن الجهاد تتبدَّل وتتغيَّر النَّوايا، والله ســـبحانه مطّلع عليها فعاتبهم بذلك وعبَّر بالعرض للتحقير والتنقيص من شـــأنها وعبَّر باسمه العظيم عن إرادته الآخرة، ومثل هذا العتاب تكرَّر في موضعين في القرآن:

١١١١. فيها أنَّ المجتهد المالك لأدوات الاجتهاد إذا بذل وسعه في مسألة اجتهاديه فجانبه الصواب أنَّه معذور غير مؤاخذ ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾، ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾.

١١١٢. تفيد: أنَّ من أعظم ما يبتغى لنيل ثواب الآخرة، الجهاد في سبيل الله؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾.

١١١٣. تفيد: أنَّ المسلم يقدِّم ما يحبه الله ويريده على نفسه وهواه. قال الطبري في تفسيره: "... فاطلبوا ما يريد الله لكم وله اعملوا، لا ما تدعوكم إليه أهواء أنفسكم من الرغبة في الدنيا وأسبابها".

١١١٤. تفيد: بغض الله للكافرين وهوانهم على الله، وتسليطه عليهم.

١١١٥. ففيها ونظائرها: ردٌّ على من يتناول الدين من منظور واحد فحسب. وقد قيل:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى مضرّ كوضع السيف في موضع الندى

١١١٦. تفيد: أنَّ النبي ﷺ يجتهد من نفسه، وأنَّه إذا جانب الصواب لا يُقَر.

١١١٧. تفيد عناية الله بعباده المؤمنين على الدوام بتوجيههم لما فيه فلاحهم ولو حادوا قليلاً.

١١١٨. تفيد إيجاد العذر لهفوة العلماء واجتهاد الفقهاء فإن كان هذا حدث لأئمة الهدى فكيف بغيرهم.

قال تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨]

١١١٩. تفيد أنَّ لِلَّهِ حُكْمًا في كُلِّ حادِثَةٍ وأنَّهُ نَصَبَ عَلى حُكْمِهِ أمارَةً هي دَلِيلُ المُجْتَهِدِ وأنَّ مُخْطِئَهُ مِنَ المُجْتَهِدِينَ لا يَأْثَمُ بَلْ يُؤْجَرُ. قاله ابن عاشور.

١١٢٠. فيها: الإيمان بالقضاء والقدر والكتابة.

١١٢١. فيها: عظيم فضل الله على عباده، وأنَّه يتفضل عليهم ويرحمهم بسابق علمه فيهم؛ بخلاف المؤاخذة فإنَّه لا يعاقبهم حتى يعملوا ويقع منهم الذنب!

١١٢٢. فيها أنَّ العبد إذا اقتحم ما يعتقده حراماً مما هو في علم الله حلال له لا عقوبة عليه".

١١٢٣. فيها أنَّه _سبحانه_ لا يحاسب أحداً إلا بعد أن ينزل التشريع الذي يرتب المقدمات والنتائج، ويحدد الجرائم والعقوبات.

١١٢٤. تفيد نموذجاً للكلمة القرآنية التي تحمل في طيَّاتها معاني كثيرة لا تعارض بينها؛ فقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ اختلف العلماء في المراد بهذا الكتاب الذي سبق على أقوال كثيرة ذكرها أهل العلم؛ قال الطبري /: خبر عامٌّ غير محصور على معنى دون معنى، وكل هذه المعاني التي ذكرتها عمَّن ذكرت، ممَّا قد سبق في كتاب الله أنَّه لا يؤاخذ بشيء منها هذه الأمَّة، وذلك: ما عملوا من عمل بجهالة، وإحلال الغنيمة، والمغفرة لأهل بدر، وكل ذلك ممَّا كتب لهم. وإذ كان ذلك كذلك فلا وجه لأن يخصّ من ذلك معنى دون معنى.

١١٢٥. فيها: التخويف الشديد من عذاب الله. وأنَّ عذاب الله لا يطاق، وأنَّه لا قبل لأحد به، ولا جلد ولا صبر لأحد عليه؛ لقوله: ﴿لَمَسَّكُمۡ﴾؛ فعبَّر عن هذا العذاب العظيم بمجرد المس. وإذا كان عظيماً بمجرد مسه، فما ظنك بمن يقاسي قعرها في أصل الجحيم – أعاذنا الله. ونظيرها: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾.

قال تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنفال: ٦٩]

١١٢٦. فيها حلُّ الغنائم لهذه الأمَّة، وأنَّها من مصادر الدخل في الدولة الإسلامية.

١١٢٧. فيها: المناسبة: لما امتنَّ الله ﷻ عليهم بأن صرف عنهم العذاب أذن لهم هنا الانتفاع بمال الفداء في مصالحهم وهذا من تفريع الامتنان.

١١٢٨. فيها: إشارة إلى النهي والتحذير مما يطرأ على المباح من مخالفات؛ لقوله بعد الحِلّ والإباحة: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

١١٢٩. فيها لطف الله ﷻ بهذه الأمَّة؛ قال السعدي/: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ وهذا من لطفه تعالى بهذه الأمَّة، أن أحلَّ لها الغنائم ولم يحلَّها لأمَّة قبلها.

١١٣٠. تفيد: أنَّ الأمر بمجرد الأكل للإباحة؛ بقرينة: ﴿حَلَٰلًا﴾. وعليه: فيستدل بها على قاعدة: "الأمر بعد الحظر للإباحة".

١١٣١. تفيد: أنَّ من الحلال ما هو بغيض خبيث وليس بطيِّب؛ وتصديقه: قول النبي ﷺ: "من أكل من هذه الشجرة الخبيثة شيئاً، فلا يقربنا في المسجد". رواه مسلم. وكامتناعه ﷺ عن أكل الضبِّ تقذُّراً. متفق عليه.

١١٣٢. فيها: إشارة دقيقة إلى: أنَّ تقوى الله تحفظ النعم (النصر – المغنم – الطعام)؛ للتذكير بتقواه – سبحانه – بعد الأكل الحلال الطيِّب؛ فكأنَّه يقول: "واحفظوا هذه النعم بتقواي.

١١٣٣. فيها: الأمر بالتقوى، وأنَّها تجلب مغفرة الله ورحمته؛ وتصديقه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحديد: ٢٨]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾[الطلاق: ٥].

١١٣٤. تفيد وبضميمة ما قبلها: أنَّ إباحة مال الكافر الحربي مردَّه إلى الله، وأنَّه – سبحانه – وحده الذي يأذن فيه.

١١٣٥. فيها بيان عظمة الإسلام، وأنَّه يعلِّم أتباعه على معالي الأخلاق ويربِّيهم على عدم الهمجية واللهث وراء تحصيل المال؛ لا سيما وقد تقرَّر أنَّ الغنائم ليست كلها لأصحابها، بل منها سهم لله ورسوله... إلى آخر من سمَّى الله في قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنفال: ٧٠]

١١٣٦. هذه الآية الكريمة تجسِّد بصورة دقيقة وعظيمة أعظم معاني الإنسانية حيث يأمر الله تعالى نبيَّه أن يواسي أسرى أعدائه وهم لا زالوا على الكفر.. ويتلطف بهم في عدهم بالمغفرة إن هم أسلموا..

١١٣٧. تفيد أهمية الدعوة إلى الخير؛ كدعوة أسرى المشركين وترغيبهم للدخول في الإسلام.

١١٣٨. أسرى مشركين، ومع ذلك يفتش عن الخير الذي في قلوبهم، لا تيأس من دعوة أحد مهما بلغ من الشر، فعلى قدر الخير الموجود في القلب تكون العطايا.

١١٣٩. وإذا كانت هذه سبيل الله في ابتغاء بقايا الخير في داخل نفس الكافر الأسير فكيف ينبغي للمسلم أن يكون ابتغاؤه لبقيَّة الخير في أخيه المسلم أو ابنه الشارد لاسيما إذا كان في حالة انكسار وضعف.

١١٤٠. فيها حسن معاملة المهزومين. وأنَّ الشماتة ليست من أخلاق المسلمين.

١١٤١. تفيد أن القلوب محل نظر الله.

١١٤٢. تفيد أن قلب الكافر قد يكون فيه خير.

١١٤٣. يعطينا الله حسب ما في قلوبنا

١١٤٤. فيها: أهمية أعمال القلوب.

١١٤٥. فيها: تأكيد على فضل الله ومنَّته وإعزازه، وأنَّه أمكن من هؤلاء الأسرى؛ لقوله: ﴿لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُمۡ﴾، ولم يقل: قل للأسرى أو لهؤلاء الأسرى – مثلا؛ لكنَّه ذكّر بالإمكان منهم بالتعبير عن ذلك بأنَّهم في يد وقبضة النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

١١٤٦. فيها: صورة من صور سعة رحمة الله ولطفه، وحثه الأسرى على الدخول في الإسلام، وتسلية عمَّا فاتهم، ومراعاة للنفس البشرية.

١١٤٧. فيها أنَّ حسن معاملة الأسرى أدعى لدخولهم في الإسلام. ومنها: ألَّا يحملهم قهر الأسر والفداء على امتلاء الضغينة في قلوبهم والسعي الحثيث في الانتقام بعد الإفلات – مثلا. وهذا يدلُّك على عظم شأن الإسلام في تشريعه حتى مثل هذه الأمور المتعلقة بالجهاد والقتال.

١١٤٨. فيها: حسن معاملة الأسير؛ ألا ترى الله تعالى يقول: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾[الإنسان: ٨-٩].

١١٤٩. فيها ردٌّ على المنافقين المشنِّعين على الإسلام، نقول لهم: هل وجدتم هذا في غير الإسلام؟ ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

١١٥٠. تفيد: أنَّ الإسلام يَجُبُّ ما قبله.

١١٥١. فيها أنَّ ما أخذ من الإنسان قد يكون الخير له في ذهابه، إذ أنَّ له في علم الله ما هو أكثر خيرا منه.

١١٥٢. فيها أنَّ المغفرة من أعظم ما يؤتى العبد؛ ﴿لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾.

قال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [الأنفال: ٧١]

١١٥٣. فيها: تطمين لقلب رسول الله ﷺ في أنَّ الله ﷻ غالب على أمره.

١١٥٤. فيها: تحذير لأولئك القوم وتهديد لهم من الخيانة.

١١٥٥. فيها: بيان أنَّ الخيانة ممَّا جُبل عليه أولئك القوم؛ وذلك بكفرهم وشركهم وإعراضهم عن دين الله ﷻ.

١١٥٦. فيها أنَّ الخيانة ليس فيها خير قط سواء كان ابتداء أو مقابلة. لذا كانت المقابلة بكلمة "فأمكن منهم" وليس "فخانهم". وهذا خلافاً للكلمات التي هي شرٌّ في الابتداء ولكن فيها خير في المقابلة، مثل المكر والكيد والاستهزاء والخداع. قال الشيخ العثيمين /:" أمَّا الخيانة فلا يوصف بها الله مطلقاً؛ لأنَّ الخيانة صفة نقص مطلق؛ و"الخيانة" معناها: الخديعة في موضع الائتمان. وهذا نقص؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡ﴾[الأنفال: ٧١]، ولم يقل: فخانهم؛ لكن لما قال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٤٢] قال: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء: ١٤٢]؛ لأنَّ الخديعة صفة مدح مقيَّدة؛ ولهذا قال الرسول ﷺ: "الحرب خدعة"، وقال ﷺ: "لا تخن من خانك"؛ لأنَّ الخيانة تكون في موضع الائتمان؛ أمَّا الخداع فيكون في موضع ليس فيه ائتمان؛ والخيانة صفة نقص مطلق.

١١٥٧. فيها أنَّ الله لا يوصف إلَّا بالكمال، وصفاته لا تقال بالرأي والقياس، وإنَّما تؤخذ من نصوص الكتاب والسنة، على فهم سلف الأمَّة.

١١٥٨. فيها التحذير مِمَّن اقترف شراً وإفساداً أنَّه يتوقع منه تكراره، فلا يستغرب من فعله ذلك، وإنَّما يحذر المرء من ذلك ويكل أمره إلى مولاه العليم الحكيم.

١١٥٩. تفيد: قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾.

١١٦٠. فيها: علم الله بما كان وما سيكون، وأنَّه عليم بالنيَّات مطَّلع عليها.

١١٦١. تفيد وبضميمة ما قبلها: أنَّ النبي ﷺ لا يعلم الغيب، وأنَّه يحكم بما يظهر له من الناس.

١١٦٢. فيها: قدرة الله وسلطانه على خلقه، وأنَّه لا يفلته ولا يعجزه أحد إن طلبه؛ قال الله: ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ [الزمر: ٥١].

١١٦٣. تفيد: أنَّ من خان الله ورسوله لا يضرُّ إلا نفسه.

١١٦٤. فيها: دقَّة التذييل ومناسبته؛ فأخبر أنَّه "عليم"، ليعلم أنَّ من جملة علمه: أنَّه عليم بما في صدورهم ليحذروا الخيانة؛ كما قال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُ﴾. وأنَّه "حكيم"، للإعلام أنَّ من جملة حكمته: أنَّه يحكم ويتقن التدبير وكيفية الإيقاع بهم ليمكِّن منهم تارة أخرى. ومناسبة الحكمة بالإحكام كما ورد في قوله: ﴿ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾.

١١٦٥. تفيد وبضميمة ما قبلها: أنَّ الرِّدَّة عن الإسلام، خيانة – بل أعظم وأفحش الخيانات؛ وعليه حمل: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾[التحريم: ١٠] فَخانَتاهُما: أي كفرتا، قال أبو حيان في تحفة الأريب في تفسير الغريب: ﴿خِيانَتَكَ﴾بالكفر بعد الاسلام.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾

[الأنفال: ٧٢]

١١٦٦. فيها مناسبة لما قبلها؛ لما تقدَّم بيان علم الله لما في القلوب، ومن ذلك إرادة الخيانة لله ولرسوله والمؤمنين؛ وأنَّ محل إرادة الخيانة القلب، وأنَّ الهجرة قد تكون لغير نصرة دين الله تعالى؛ بيَّن في هذه كواشف وصدق ما في القلوب وهي: الجهاد بالمال والنفس. إيواء ونصرة المؤمنين بكل ممكن في أي زمان ومكان. فتلك أمور لا يجرؤ عليها عادة منافق وعميل.

١١٦٧. فيها شرف الهجرة في سبيل الله بعد الإيمان بالله.

١١٦٨. تفيد الآية فضيلة المهاجرين على الأنصار؛ لأنَّ الله ابتدأ بذكرهم.

١١٦٩. يفيد تقديم جهاد المال في هذه الآية المباركة على جهاد النفس، ممَّا يوضِّح المنزلة الرفيعة لجهاد المال وأهميته.

١١٧٠. فيها رعاية الإسلام للعهود واحترامه للشروط والعقود لقوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾.

١١٧١. فيها وجوب نصرة المؤمن لأخيه ولو تباعدت الأقطار، واختلفت الديار لقوله: ﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾.

١١٧٢. فيها أهمية الولاء، ولاية المؤمنين لبعضهم البعض وهذه الولاية من أوثق عرى الإيمان.

١١٧٣. فيها أنَّ من ولاية المؤمنين بعضهم لبعض تجعلهم كالجسد الواحد.

١١٧٤. فيها دليل على أنَّ المسلم لا يَلي عقد أخته الكافرة لانعدام الموالاة بينهما، والكافر لايلي عقد أخته المسلمة.

١١٧٥. تفيد أنَّ الهجرة لا تكون إلَّا إلى مكان الإيواء والنصر؛ وبذلك تؤتي الهجرة ثمارها؛ لأنَّ الجهاد يحتاج إلى تربية قبله فكان بالإيمان والهجرة مع رسوله في حياته، وهجرة المعاصي والذنوب بعد وفاته ﷺ؛ فمجاهدة النفس والانتصار عليها سبيل الانتصار على الأعداء بإذن ربِّ الأرض والسماء.

١١٧٦. تفيد بأنَّه كما تدوم الهجرة إلى يوم القيامة، فكذلك يدوم الإيواء والنصـــر للمهاجرين إلى يوم القيامة. فدلَّت على أنَّ الهجرة والنصرة متلازمتان.

١١٧٧. تفيد الإيواء والنصـــر وبينهما فرق فالأول مجرد توفير المأوى، والثاني هو الدفاع بالبيان والسنان والمال ونحوه وكلاهما يمكن في هذا العصر فإن لم نستطع الدفاع عن إخواننا المستضعفين فلا أقل من نصرهم بالكلمة بالوسائل المتاحة.

١١٧٨. تفيد أنَّ الشريعة الإسلامية طاهرة تتوفَّر فيها العدالة واحترام المواثيق.

١١٧٩. تفيد أنَّه على المسلم الذي لم يستطع الهجرة من بلاد الكفر الصبر حتى يفرج الله أمره ذلك بدلالة الأمر. بعدم نصرته.

١١٨٠. القرآن يعلِّمنا التوازن في جميع شؤون حياتنا في السلم والحرب، والنصرة والولاء لأوليائه، والوفاء بالعهد لأعدائه.

١١٨١. تفيد مكانة الولاء والبراء ودورهما في تحقيق نصر وعزة الأمة المسلمة.

١١٨٢. تفيد أن النصـــرة التي يســـتجاب فيه هي النصـــرة في الدين، ليســـت لجهوية أو عرقية وغيرها.

١١٨٣. فيها منزلة الهجرة العظيمة في الدين، وقال النبي ﷺ لمن ســـأله عن الهجرة: "إنَّ شـــأنها لشـــديد" (متفق عليه)، وقال لعمرو بن العاص رضي الله عنه: أما علمت أن الهجرة تهدم ما كان قبلها". رواه مسلم.

١١٨٤. تفيد كمال علمه بكل ما في قلوب عباده، بما يســـتوجب اصـــلاح النية والحذر من عقابه.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴾ [الأنفال: ٧٣]

١١٨٥. فيها: مناســـبة لما قبلها؛ لأنَّ ما قبلها يبيّن صـــور الموالاة التي يجب أن تكون بين المؤمنين.

١١٨٦. فيها تأكيد أصل الولاء والبراء في الإسلام وأنَّه أصل من أصول هذا العقيدة.

١١٨٧. تفيد ما ذهب إليه جمهور أهل العلم من أنَّه لا يرث مسلم كافراً، ولا كافر مسلماً، وقد روي أنَّ النبي ﷺ قال ذلك وقرأ هذه الآية.

١١٨٨. فيها أنَّ المفاصلة بين المؤمنين والكافرين والتمايز بينهما أصل ومقصد من مقاصد العقيدة.

١١٨٩. تفيد: أنَّ الكفار جميعاً مهما اختلفوا في الديانة، فإنَّهم أولياء بعض على محاربة دين الله والمسلمين. وما تحزُّبهم في غزوة الأحزاب عنَّا ببعيد؛ فقد اجتمع أهل الكتاب والشرك والنفاق على الإسلام.. وأنت ترى اليوم اجتماع اليهود والنصارى وغيرهم على الإسلام ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ﴾.

١١٩٠. فيها تنبيه المؤمنين إلى أنَّ الكفار مهما اظهروا من الصَّداقة ونحوها فهم في حقيقة الأمر أولياء بعض ولا ولاية عندهم لأهل الإيمان إلَّا للمكر والخداع، وفي هذا أبلغ التحذير لمن يغتر بالكفار في زماننا..

١١٩١. فيها أن من صرف هذه الأنواع من النصرة لغير المؤمنين فليس منهم؛ وبدليل ما بعدها. ويكون ممَّن قال الله فيهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[المائدة: ٥١].

١١٩٢. فيها التأكيد على الجماعة ووحدة صف المسلمين بالموالاة والنصرة فيما بينهم والحذر من أسباب الفرقة الاختلاف ومنها موالاة الكافرين فيؤدِّي ذلك إلى ضعف المسلمين وتفرُّق جماعتهم وفي هذا من الفتنة في الأرض والفساد الكبير ما هو ظاهر.

١١٩٣. تفيد بيان بعض أسباب الفتنة، والتحذير من الوقوع فيها.

١١٩٤. تفيد أنَّ الدين الإسلامي يحارب ويكافح جميع أشكال الفساد والإفساد في الأرض من خلال سد أبوابه، وتحريم أسبابه.

١١٩٥. تفيد أنَّ الدفع أسهل من الرفع، وأنَّ درء المفسدة أولى من جلب المصلحة، وأنَّ الفتنة إذا وقعت طمَّت، وانتشرت في الأرض انتشار النار في الهشيم، ولم يسلم من التلوث بها إلَّا من عصمه الله، لقوله تعالى: ﴿تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾.

١١٩٦. وفيه مغبَّة التقصير في الولاء والبراء ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾.

١١٩٧. فيها التحذير من الفتن وأسبابها ومنها فتنة التباس الأمور واختلاط المؤمنين بالكافرين من غير تمييز.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [الأنفال: ٧٤]

١١٩٨. مناسبة الآية لما تقدمها: لما حذَّر الله تعالى المؤمنين بأنَّ عدم فعل ما أرشدهم إليه، وأضمره في قوله ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ﴾؛ وأنَّ عاقبة ذلك الفتنة، والفساد الكبير؛ أظهر ما أرشدهم إليه فأعاده تأكيداً له في هذه الآية بالثناء والجزاء لمن اتصف به.

١١٩٩. فيها دخول العمل في مسمَّى الايمان.

١٢٠٠. فيها تقديم المهاجرين على الأنصار لتقديمهم في الذكر ومزيد الخصال.

١٢٠١. فيها فضل المهاجرين ﴿...وَهَاجَرُواْ﴾ وفضل الأنصار ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾. وتزكية الله تعالى لهم بأنَّهم ﴿هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗا﴾.

١٢٠٢. فيها مدح الذين قاموا بتحقيق مبدأ الولاء والبراء حقيقة وهم: المهاجرون والأنصار.

١٢٠٣. فيها الإشارة إلى الاقتداء بهم لأنَّهم ﴿هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗا﴾ .

١٢٠٤. تفيد الآية الكريمة أنَّ الهجرة والنصرة صفتان محمودتان وهما قائمتان بالأمَّة الإسلامية إلى يوم القيامة.

١٢٠٥. فيها الردُّ على الرافضة ومن شاكلهم من العصرانيين الطاعنين في صحابة رسول الله ﷺ وقد شهد الله تعالى بأنَّهم ﴿هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗا﴾ وبوعده تعالى لهم ﴿لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾.

١٢٠٦. تفيد أنَّ تحقيق الإيمان سبب للحصول على المغفرة الربَّانيَّة، ومجلبة للرزق الواسع الهانئ.

١٢٠٧. فيها اهتمام المؤمن بالمستضعفين من المسلمين.

١٢٠٨. تفيد أنَّ الهجرة تغفر الذنوب؛ وتصديقه: قول النبي ﷺ: وأنَّ الهجرة تهدم ما قبلها". رواه مسلم.

١٢٠٩. تفيد أهميَّة النيَّة. وأنَّ المؤمن الحقَّ من يهاجر ويجاهد في سبيل الله؛ لا في سبيل غيره من المقاصد. وفي الحديث: «الأعمال بالنيَّة، ولكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه» رواه البخاري.

١٢١٠. فيها أهميَّة النصرة والولاء لأهل الإيمان، وأنَّ هذا من موجبات المغفرة والجنَّة.

١٢١١. فيها: فضل الأنصار رضي الله عنهم.

١٢١٢. تفيد: أنَّ العبد مهما اجتهد وبذل من طاعات وخدمات للدين والمؤمنين، فهو محتاج إلى عفو الله ومغفرته، ورحمة الله على البقاعي لما قال: "ولَمّا بَيَّنَ وصْفَهُمْ، بَيَّنَ ما حَباهم بِهِ بِقَوْلِهِ: دالًّا عَلى أنَّ الإنْسانَ مَحَلُّ النُّقْصانِ، فَهو - وإنِ اجْتَهَدَ حَتّى كانَ مِنَ القِسْمِ الأعْلى - لا يَنْفَكُّ عَنْ مُواقَعَةِ ما يَحْتاجُ فِيهِ إلى الغُفْرانِ: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أيْ: لِزَلّاتِهِمْ وهَفَواتِهِمْ؛ لِأنَّ مَبْنى الآدَمِيِّ عَلى العَجْزِ اللّازِمِ عَنْهُ التَّقْصِيرُ وإنِ اجْتَهَدَ، والدِّينُ مَتِينٌ فَلَنْ يُشادَّهُ أحَدٌ إلّا غَلَبَهُ"، وقد قال الله لنبيِّه - بعد كل هذا البذل منه ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[الفتح: ١-٢].

١٢١٣. الإشارة إليهم بإشارة البعيد ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ يدلُّ على علوِّ منزلتهم ورفعة شأنهم؛ جعلنا الله وإياكم منهم.

١٢١٤. فيها تقديم المغفرة على الرزق يدلُّ على حاجة العبد للمغفرة أكثر من حاجته للرزق، نعم فإن غفر ورزق في الدنيا فتح للعبد من أبواب الفتوح ما يبلغه رضاه ورزق الآخرة ما لا عين رأت.

١٢١٥. تفيد وبضميمة ما سبق من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ أنَّ الآيات التي ظاهرها التشابه والتكرار في الألفاظ، تساق لبيان ومعان زائدة.

١٢١٦. فيها ما يحمل على بذل الوسع في تدبُّر كلام الله، والوقوف على الحكمة من التكرار؛ لا سيما إذا وجد تكرار حقيقي؛ وإلَّا فليس في الآيتين تكرار في الواقع للمغايرة في المعاني. وبهذه المناسبة أذكر مقولة طيبة لشيخ الإسلام/: "ليس في القرآن تكرار محض بل لابد من فوائد في كل خطاب". مجموع الفتاوى. قال الطَّاهر بن عاشور في التحرير والتنوير: فَلَيْسَتْ هَذِهِ تَكْرِيرًا لِلْأُولى، وإنْ تَشابَهَتْ ألْفاظُها: فالأُولى لِبَيانِ ولايَةِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، وهَذِهِ وارِدَةٌ لِلثَّناءِ عَلَيْهِمْ والشَّهادَةِ لَهم بِصِدْقِ الإيمانِ مَعَ وعْدِهِمْ بِالجَزاءِ.

قال تعالى:﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ [الأنفال: ٧٥]

١٢١٧.أنَّ من أعظم الفروق بين أول هذه السورة وآخرها هو قوَّة التحقق بالإيمان الحقّ، والقيام بما أوجبه ذلك الإيمان؛ وأنَّه القاعدة الصلبة التي يؤسس عليها بنيان مجد وعزة هذه الأمَّة.

١٢١٨. اللبنة الأساسيَّة في الإصلاح تبدأ من الأسرة وذوي الرحم، ولذا بدأت السورة بالتأكيد على إصلاح ذات البين، وختمت بأولي الأرحام بعضهم أولى ببعض.

١٢١٩.تفيد أنَّ مرتبة المهاجرين الأولين أشرف وأعظم من مرتبة المهاجرين المتأخرين بالهجرة لأنَّ الله تعالى ألحق المهاجرين المتأخرين بالمهاجرين السابقين وجعلهم معهم، وذلك معرض المدح والشرف، ولولا أنَّ الأولين أفضل وأشرف لما صح هذا الإلحاق. قال ابن عاشور/: (بَعْدَ أنْ مَنَعَ اللَّهُ ولايَةَ المسْلِمِينَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ولَمْ يُهاجِرُوا بِالصَّراحَةِ، ابْتِداءً ونَفى عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُهاجِرُوا تَحْقِيقَ

الإيمانِ، وكانَ ذَلِكَ مُثِيرًا في نُفُوسِ السّـامِعِينَ أنْ يَتَسـاءَلُوا هَلْ لِأُولَئِكَ تَمَكُّنٌ مِن تَدارُكِ أمْرِهِمْ بِرَأْبِ هَذِهِ الثُّلْمَةِ عَنْهم، فَفَتَحَ اللَّهُ بابَ التَّدارُكِ بِهَذِهِ الآيَةِ).

١٢٢٠. الركيزة الأولى لأيّ عمل مهما عظم (الإيمان).

١٢٢١. أسمى الأعمال بعد الإيمان: الهجرة والجهاد.

١٢٢٢. وحدة المسلمين الأساس، وكل لاحق لا كينونة له إلا باتباعه للأصل والأساس.

١٢٢٣.فيها أنَّه يتوجَّب على الإنسان ألَّا يقطع جميع خطوط الرجعة والعودة على نفسه وعلى غيره، بل يترك الطريق مفتوحًا ليتسنى له السير فيه عند عودته، وهذا يفيد المربين والمعلمين أيضًا.

١٢٢٤. تدارك الأمور طريقة العقلاء ومنهج الحكماء، وفيها نجاة من سوء العواقب والندم.

١٢٢٥. رحمة الله بعباده بفتح باب التوبة لعباده والرجوع وتدارك الأمور.

١٢٢٦. فيها أفضلية السابقين على اللاحقين.

١٢٢٧. تفيد أنَّ الهجرة باقية إلى قيام الساعة؛ لقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾، وقد قال النبي ﷺ: "لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشـمس من مغربها"، أما حديث: "لا هجرة بعد الفتح " فالمراد به لا هجرة من مكة لأنَّها صارت دار إسلام.

١٢٢٨. يفيد قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡ﴾ المنَّة العظمى بالانتماء إلى هذه الأمَّة.

١٢٢٩. تفيد أن الدين رحم عام يكون فيه الولاء والبراء.

١٢٣٠. فيها عظم حق الأرحام.

١٢٣١. فيها التوجيه إلى وصل الأرحام والترابط الأسري لأنَّهم أولى ببعض من غيرهم.

١٢٣٢. بعد أن بيَّن بعض أحكام الولاء والبراء بيَّن أنَّها ليست ملغية لأحكام الرحم ولا تخفف من أهميتها.

١٢٣٣. يفيد إحاطة علم تعالى بكل شـيء تحقيق التقوى، والتحقق بحقيقة الإيمان الحقَّ؛ وعليهما مدار السورة المباركة.

١٢٣٤. ناسب الختام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ لغرس الاطمئنان لهذا الكم من التشريعات الجديدة لهذه الدولة الوليدة.

١٢٣٥. يفيد ختم السورة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ أنَّ هَذِهِ الأحْكامَ الَّتِي ذَكَرْتُها وفَصَّلْتُها كُلُّها حِكْمَةٌ وصَوابٌ وصَلاحٌ، ولَيْسَ فِيها شَيْءٌ مِنَ العَبَثِ والباطِلِ؛ لِأنَّ العالِمَ بِجَمِيعِ المَعْلُوماتِ لا يَحْكُمُ إلّا بِالصَّوابِ.

١٢٣٦. فيها: علم الله وإحاطته بكل شيء.

بحمد الله تعالى

وبهذا تمت سورة الأنفال في ١٢٣٦ هداية

بتاريخ ١٤٤١/٤/٢٥هـ

ولله الحمد والمنة ومنه التوفيق والعصمة.

تلخيص دكتور حسريو الخضر